سلسلة دراسات 39

حوار الحضارات
الضرورات والرهانات

الدكتور عبد الحليم زوبير

مفاد
مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات

منار الإسلام
MANAR AL ISLAM

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
يمنع طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملا أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيط أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية أو نشره رقميا على الأنترنت إلا بموافقة الناشر خطيا.

الأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي صاحبها ولا تعكس موقف المركز
كما يتحمل الكاتب وحده مسؤولية أي خرق لحقوق الملكية الفكرية للغير

كتاب: حوار الحضارات الضرورات والرهانات
تأليف: عبد الحليم زوبير
الناشر: مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات (مفاد)
ردمـــك: 978-9920-576-26-0 : ISBN
الطبعة الأولى: 1444هـ / 2023م
التدقيق والإخراج الفني: www.islamanr.com

حوار الحضارات
الضرورات والرهانات

الدكتور
عبد الحليم زوبير

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أسرتي التي اقتطعت من وقتهم ما أنفقته لإنجاز هذاالكتاب:

شكرا أمي: فضمة.

شكرا زوجتي: زهيرة.

شكرا بناتي: سناء- خولة- مريم.

شكرا على حسن التفهم والعون.

Manar al islam
islamanar.com

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

يعتبر موضوع الحوار بين الحضارات أحد أهم الملتقيات التي تجمع عناصر الخير المدخر بين الأمم والشعوب، فالناس على اختلاف حضاراتهم وثقافاتهم، يعبرون عن خصال الخير بتعبيراتهم الخاصة، فيكون الموضوع غير متعلق بأمة تمتلك حضارة وقيما في مقابل أمة همجية بدائية، وإنما الموضوع هو كيف تعبر كل أمة عن قيمها الحضارية، وحيث إن حواجز اللغة، والجغرافية، والأديان، والأحكام المسبقة، تحول دون إدراك تلك التعبيرات الخاصة بكل أمة، فقد كان ضرورة أن يكون الحوار، من أجل التعارف أساسا، ثم لما يمكن أن يستتبعه ذلك التعارف من أوجه التعاون والتحالف، ولعل أهمية هذا الموضوع يكشفه حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه". وهذا يجعلنا نحن المسلمين أولى الأمم بالبحث عن القيم المشتركة، والخطوط الحضارية التي يمكن أن تصلنا بالأمم، كوننا نحمل رسالة نحتاج أي فرصة لإسماعها، وإذا كانت جهات كثيرة تحرم على المسلمين مجرد التعبير عن هويتهم، فإن حوار الحضارات يحمل فرصة التواصل مع الأمم على طبق من ذهب.

أما الآخرون فلن يجد الأخيار منهم مناصا من الحوار بين الحضارات، لأنهم يعرفون كما نعرف البديل عن الحوار، وإذا سنجد أنفسنا صفا واحدا مع المنتفعين من حوار الحضارات وهم أغلب سكان الأرض، في مواجهة المنتفعين من الصراع والصدام، وهم أقلية، رغم ما يملكون من قوة مادية موضوعية، وأخرى موضوعية يستمدونها من ضعف أهل الخير وانقطاع الصلات بينهم، فيكون الحوار أيضا سلاحا في مواجهة لا هوادة فيها تحسم مصير الدنيا بأكملها.

وبعد تقليب النظر فيما كتب حول موضوع حوار الحضارات رأيت أن أقاربه من زاويتين تشكلان الإطار النظري للموضوع هما ضرورات الحوار ورهاناته. وبعد مدخل تمهيدي في التعريف بعناصر الموضوع من حوار وحضارة، تناولت صلب الموضوع في فصلين: الأول حول ضرورات الحوار بين الحضارات، توجهت في الشق الأول منه إلى الداخل الإسلامي من خلال نظرة فاحصة لمنظومة الحوار في القرآن الكريم. ثم توجهت إلى الإنسان –كل الإنسان- في

الشق الثاني، من خلال المشترك الذي يجمعنا ويهمنا جميعا الحفاظ عليه. وفي الفصل الثاني: طرقت رهانات الحوار بين الحضارات، والتي رأيت أنها تتجلى في ثلاث مستويات واجبة الترتيب نظريا وعمليا، هي: التعارف ثم التعاون ثم التحالف. ثم أطللت على واقع الحوار بين الحضارات وتوقفت عند المبادرات الطيبة التي يرعاها الضمير الإنساني في الشرق والغرب على اختلاف في الاهتمام، والاستمرار، ولعل الموضوع يستدعي مني أن أنوه بدولة قطر كونها الدولة العربية التي تكاد تكون واحدة في اضطلاعها بهذه المهمة النبيلة، من جهة، وكونها–على المستوى العالم- الدولة التي نظمت أكثر التظاهرات العلمية، في موضوع الحضارات، مع حركة دؤوبة ومؤسسات متخصصة، نرجو أن تكون بداية وعي عربي إسلامي يأخذ الانفتاح على الآخر مأخذ الجد، بما يضمنه من آفاق واسعة للتواصل الذي تحتاجه أمة الرسالة الإسلامية التي أرسلت للعالمين. وما ذلك على الله بعزيز.

عبد الحليم زوبير

مراكش: الأحد 1 أبريل 2018م.

مدخل تمهيدي:

يلزمني في مدخل الموضوع أن أتعرض لمفهومي الحضارة والحوار، باعتبارهما مصطلحين متداولين في سياقات متعددة، وباعتبارهما مركبا إضافيا يعبران عن الموضوع الذي نحن بصدده، ذلك التعريف الذي لابد منه للدلالة على المقصود، ولتفادي الاصطدام مع من ينكر الدعوة - أو التقليل من أهميتها- إلى حوار حضارات، وأنا أجزم أن ذلك الإنكار –إن صدر عن أهله ولم يكن تشنجا انطباعيا- فإنما يرجع إلى المفهوم الذي يشتغل عليه المنكر أو المقلل من أهمية حوار الحضارات، أما الواقع ففيه ما يصدق دعوة مقاطعة الحوار إن تركزت الرؤية على ما يطفوا على سطحه من أحداث، تنتهي بالقول: أن العالم لا يلزمه حوار بقدر ما يلزمه النضال من أجل التحرر من الشيطان[1] الذي يحكم العالم كما قال مصطفى محمود، ولكن في العمق سيجد المتأمل الحاجة ماسة إلى الحوار.

أولا: مفهوم الحضارة:

مفهوم الحضارة يفيدنا في مشروعية الحوار بين الحضارات وجدواه، ومعرفة أطرافه. فماذا تعني الحضارة؟ وهل توجد اليوم حضارات أم هناك حضارة واحدة، في مقابل ثقافات أو أعراق أو أقليات أو ما شئت من ذلك..؟

مصطلح الحضارة أصيل في اللغة العربية، قال ابن فارس: «الحاء والضاد والراء إيراد الشيء وروده ومشاهدته.. فالحضر خلاف البدو، وسكون الحضر الحضارة.. قالها أبو زيد بالكسر وقال الأصمعي هي الحضارة بالفتح «[2] فتلخص من ذلك: أن الحضارة تفاعل مع الأشياء، وهو مؤدى كلام ابن فارس: إيراد، وورود، ومشاهدة. والمتفاعل هنا هو الإنسان، والأشياء هي: الأرض ومشتملاتها الظاهرية والباطنية، أو بصفة عامة الطبيعة بعالمها العلوي والسفلي. ذلك التفاعل الذي يحول البداوة إلى حضارة وتمدن، ويستعمل مفهوم الحضارة

(1) الشيطان هنا ليس طرفا أو دولة معينة كما هو متداول في بعض الأدبيات السياسية في الوقت الحاضر. إنه منظومة القيم العدوانية التي تحكمنا جميعا، حتى لا يكاد يتخلص منها طرف. دون أن ننسى أن القوي منا يستغل الحكم الشيطاني هذا لخدمة مصالحه، وطرح الآخر جانبا.

(2) معجم مقاييس اللغة أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر ط:1979م. كتاب الحاء. باب الحاء والضاد وما يثلثهما. مادة حضر.

في الخطاب التداولي الحديث بمعنيين: الأول وصفي، والثاني تقويمي. فالأول يعني: التعبير عن واقع أمة، ذلك الواقع الذي يستدمج كثيرا من التقاليد والتاريخ واللغة والدين وما أنتجته هذه الأمة من لوازم العمران.. بغض النظر عن قيمة كيانها بين الأمم. أما الثاني فيعني: تميز أمة عن باقي الأمم بجانب من جوانب المعرفة النظرية أو التجريبية، تميزا يعطيها حق التلبس بمفهوم التحضر[1]. فباعتبار المفهوم الأول تكون لكل أمة حضارة، مهما كانت غارقة في التخلف، بينما يقيم المفهوم الثاني درجة الفاعلية لدى الأمة، فيجوز نعت أمة بكونها متحضرة أو متخلفة عن ركب الحضارة.

وقد أنكر بعض المفكرين المعاصرين الحديث عن حوار حضارات رأسا، ويرى أن عالم اليوم ليس فيه حضارات متعددة، حتى يدعى إلى حوارها، وإنما الممكن حوار ثقافات، أو حوار حضارة مقابل ثقافات، ولا يخفى أن المفهوم الذي اعتمده هذا الاتجاه، هو ذلك المفهوم التقويمي للحضارة. وقد أسلفنا أن الحضارة يمكن تناولها باعتبارها معطيات واقع أمة، تراكمت تاريخيا وثقافيا ودينيا.. ولكن هذا الفهم - وإن كان يصدر عن بعض الكتبة أو الإعلاميين الذي لا يولون المصطلح أهمية قصوى- فإنه قد صدر بالفعل عن قامة كبيرة، معروف باهتمامه بالمصطلح، بل بتأثيل المصطلح، ذلك هو المفكر المغربي الدكتور طه عبد الرحمن، ولا يسع مثلي أن يجادل مثله، غير أن الباب يحرز –كما يقول الفقهاء- فهو بنى نقده لمفهوم حوار الحضارات على الإنجاز المستمر، الذي يحتم على الأمة لكي تحمل لقب الحضارة أن تتحقق «بالفعل العمراني الأوسع، والفعل التاريخي الأعمق"[2]. فنقده متسق مع المفهوم الذي اختاره للحضارة، على أن تعريف فضيلته يطرح إشكالا فرعيا، هو أنه: إذا كانت الحضارة الغربية وهي المشار إليها بالحضارة الوحيدة، متحققة بالفعل العمراني الأوسع، فهل يا ترى هي أيضا –ولا سيما إذا تحدثنا عن الولايات المتحدة رأس الحضارة الغربية اليوم- متحققة بالفعل التاريخي الأعمق، فتاريخ الولايات المتحدة ليس شيئا يذكر بالمقارنة مع تواريخ الأمم الأخرى ومنها الأمة الإسلامية. فهل نسقطها من حسبان الحوار المفروض بين الحضارات..؟ قد يكون الغرض من التحقق بالفعل التاريخي هو استعمال الأمة الزمن لصالحها، وليس تاريخها العريق القديم، وحينها يكون الفعل العمراني والتاريخي

(1) في معركة الحضارة: قسطنطين زريق دار الملايين بيروت ط الثالثة 1977م.ص:-17 18.

(2) الحوار أفقا للفكر طه عبد الرحمن الشبكة العربية للأبحاث والنشر بيروت لبنان الطبعة الأولى 2013م. ص:182

وجهان لعملة واحدة. وسواء قصد الدكتور طه هذا المفهوم أو ذاك، فإن الامتداد التاريخي العريق له وزن في تحولات الأمم وقابليتها للنهوض بعد السقوط. فأي أمة لا تكون حضارتها متأكدة إلا إذا حافظت عليها لمدة تاريخية تعطيها طابع الاطراد، حتى لا تكون فلتة تاريخية عابرة.

إن هذا الإشكال يكشف عن نسبية الحضارة الإنسانية مطلقا، وهو إحدى مبررات الدعوة إلى الحوار بين الحضارات، أما التثاقف أو حوار الثقافات والأديان.. فهي في رأيي فروع لحوار الحضارات، هذا الذي لن يتحقق إلا إذا اشتغلت كل أجنحته، وهي الدين والثقافة واللغة والسياسة والخبرات، وهو الذي نلخصه في:حوار إنساني بأبعاده الروحية والعقلية والجسدية، فلا يوجد إذا تناقض بين الدعوة إلى الحوار بين الحضارات أو بين الثقافات أو بين الأديان، إنه حديث عن الجزء والكل، فمتى تحقق الحوار- مثلا- بين دينين يمكننا القول بأن حوارا بين حضارتين قد بدأ، فيمكن أن يتقدم الحوار بين الحضارات في بعض مستوياته ويتخلف في مستويات أخرى، وتخلفه أو فشله في بعض مستوياته لا يبرر تعليقه في كافة المستويات، لأمرين وجيهين:

- الأول: أن من يحمل رسالة حضارية حقا، لا يمكن أن يسعى لسد منافذ الحوار مهما كانت ضيقة، فالإطلالة الخفيفة على الطرف الآخر، مهما كانت قصيرة ومحدودة، تخفف من داء الجهل، وتفتل في حبل التعارف الذي يضمن كل مفردات التعايش والتواصل المثمر.

- الثاني: أن القاعدة القرآنية « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ"[1] تقتضي أن لا نؤاخذ طرفا من الأمة الأخرى بجريرة طرف آخر من نفس الأمة، فإذا فشل الحوار بين السياسيين لأي سبب فهذا ليس مدعاة لإفشال الحوار بين المؤسسات العلمية والحقوقية والدينية، فالتقسيم الجغرافي والعرقي واللغوي للأمم لم يكن قط موضوعيا، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يوجد في كل أمة عناصر الخير والشر، قال تعالى: « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ 123"[2]فالتقسيم الموضوعي ينبغي أن يكون بين دعاة الخير بكل مفرداته: السلام والعلم والمنفعة وحقوق الإنسان وحريته

(1) سورة الأنعام: الآية 164. سورة الإسراء الآية 15. سورة فاطر الآية:18.
(2) سورة الأنعام الآية 123.

وكرامته... وبين دعاة الشر بكل مفرداته: الاستغلال والكراهية والأثرة والظلم والإهانة... فالحوار بين الحضارات يعني أيضا الحوار بين دعاة الخير من كل قطر وجنس ودين وبكل اللغات الممكنة، يكون إحدى أهم موضوعاته، مناهضة الشر من كل قطر وجنس وتدين.. فكم من معتقل غريب يحمل قيم الخير، بين دعاة الشر، انقطعت الصلة به، لأن الطرف الآخر سد منافذ الحوار، وعمم حكم الصراع الحضاري مع جميع مكونات الأمم الأخرى، فحرم تعاون إخوان الخير بسبب حواجز الجغرافيا واللغة والدين.. وهذه أثمن هدية يمكن أن تقدم لقوى الشر المتربصة بالقيم الحضارية الجامعة.

وقبل التحول عن مفهوم الحضارة أرى أن أقف عند محل العنصر الروحي في مفهوم الحضارة، لسببين:

الأول: طغيان المادة على الحضارة الإنسانية المعاصرة، وتحول الإنسان إلى مجرد رقم من بين الأرقام المادية التي تصنفها الحضارة الراهنة حسب فاعليتها الإنتاجية.

الثاني: أن الأمة الإسلامية وهي أهم طرف في الشرق يحتاج وتحتاجه الحضارة الغربية اليوم[1]، أمة دينية بطبعها[2]، يعني أن حضارتها بدأت مع الإسلام، وكان ازدهارها وانحدارها بحسب قربها وبعدها من الدين الإسلامي، فالقيمة الحضارية الكبرى التي تقدمها وستقدمها للأمم الأخرى هي الدين، ليس بالمفهوم الكنسي الغربي، ولكن الدين بمفهومه الإسلامي الذي يوازي بين الدنيا والآخرة، وبين الروح والعقل والجسد، وبين الأمة والأفراد.. لقد دأب بعض المعاصرين على اتخاذ هذا الطابع للمجتمع عندنا دلالة على الرجعية وهيمنة الغيب والأساطير. ولئن وجد في مجتمعنا –لا في الدين الإسلامي- ما يصدق بعضا من قولهم، فالواقع أن حرمانهم وتشوفهم للمتعة المادية التي تضمنها الحضارة الغربية، ساعد في تطرفهم في الحكم على روحانية المجتمع الإسلامي بالتخلف والرجعية. لكن تعاسة الإنسان الموغل في المتعة دون أن يجد منها كل الشفاء يدعونا إلى الحديث عن الدين ضمن حديثنا عن الحضارة.

(1) هذا لا يعني أن الحوار لا يكون إلا بين الشرق والغرب. ففي الشرق حضارات وقوى تصعد تحتاج الحوار. وسأشير لذلك في مستقبل الصفحات.

(2) المجتمع الإسلامي في مواجهة التحديات الحضارية الحديثة. أبو بكر القادري سنة النشر1998 المغرب بدون ذكر اسم الطبعة. نقلا عن هملتون جيب دراسات في حضارة الإسلام. ص-10 11.

بالرجوع إلى المفهوم القيمي للحضارة، فإن كل ما بقي على الحال الأول لا يكون تحضرا، أو بعبارة ابن خلدون ما بقي على الطبيعة باد وليس متحضرا. فتفاعل الإنسان مع الطبيعة لم يكن الغرض منه دائما هو تحصيل أدوات الحراثة والبناء والحفر وغيرها، بل كانت الطبيعة أيضا مصدر المعرفة العميقة بالذات، تلك المعرفة التي تؤدي إن تعمق صاحبها إلى معرفة سر الوجود وخالقه[1]، ومهما أعرض الإنسان –كما جرته إلى ذلك ثقافة الأنوار، ومشروعية الإنجاز المادي- فإن نداء النفس والفطرة مزعج لدرجة أن يفضل الإنسان الانسحاب من بين كل لذات الدنيا ويسلك سبيل الانتحار ليتخلص من ذلك الإزعاج، إنه ليس إزعاجا بالمعنى القدحي، إنه تنبيه ملح لينتبه الإنسان أن شيئاما في حياته ليس على ما يرام، كما تفعل هذه الآلات التي صنعها الإنسان إذا استعملت بغير النحو الذي حدده صاحب الصنعة..أفلا يستحق هذا العنصر الذي يحافظ على حياة الإنسان واستقراره أن يعتبر ضمن مكونات الحضارة الإنسانية؟ وكما حكى القرآن الكريم تفاعل ابن آدم الأول مع الطبيعة ليعرف « كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ"[2]، فقد حكى أيضا قصة إبراهيم الذي تفاعل مع النجم والقمر والشمس لينتهي به المطاف أن يعلن: « إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ"[3].أليس إزراء بالحضارة أن نسقط ملة أبينا –جميعنا أهل الأديان التوحيدية- إبراهيم من حسبان الحضارة التي نريد؟ لكل هذا يمكننا أن نعتبر الدين ليس فقط عنصرا من عناصر الحضارة، بل هو مؤشر على تقدم الإنسان في كشف أسرار الطبيعة وتطويعها لصالح روحه كما يسخرها لجسمه وعقله.

ثانيا: مفهوم الحوار:

يدور معنى الحوار في اللغة العربية على التداول والدوران، وهو إحدى معانيه الأساسية، فمن ذلك «المحور: الخشبة التي تدور فيها المحالة، ويقال حورت الخبزة تحويرا، إذا هيأتها وأدرتها، لتضعها في الملة[4]"[5]. فالحوار يقتضي تداول الحديث بين طرفين فأكثر، وذلك

(1) ينظر في هذا المعنى كتاب الدكتور سعيد رمضان البوطي رحمه الله. التعرف على الذات هو الطريق المعبد إلى الإسلام. عن دار الفكر.

(2) سورة المائدة الآية: 123.

(3) سورة الأنعام الآية -78 79.

(4) الملة الرماد أو التراب الحار. معجم لمقاييس باب الميم وما بعدها في المضاعف والمطابق. مادة مل.

(5) معجم مقاييس اللغة لابن فارس كتاب الحاء باب الحاء والواو وما يثلثهما مادة حور.

التداول لا يستقيم إلا إذا كانت أطرافه مختلفة. فالحوار يفرض وجود اختلاف، والاختلاف يقتضي وجود متعدد، فتكون فلسفة الحوار في أصلها قائمة على الاختلاف، فالذي لا يقبل الاختلاف لا يقبل الحوار بالضرورة، إلا أن يكون حوارا تفاوضيا، كالحوار الذي يكون بين الجلاد وضحيته، يسعى من خلاله الجلاد لابتزاز ضحيته، ويقبل الضحية بالإجحاف من طرف الجلاد ليخرج بأقل ما يمكن من حقوق مغتصبة في يد الجلاد، فهذا ليس حوارا حقيقيا لأن الاختلاف والتعدد ليس حقيقيا فيه، ما دام الجلاد هو المهيمن على حلبة الحوار، وهو الخصم والحكم.. وقد يكون حوارا مع الذات كالحوار الذي يكون بين طرفين تجمعهما مصلحة واحدة، كالذي يكون بين الأب وأبنائه حول مصلحة تدبير أموالهم. فهذا الحوار وإن كان فيه اختلاف فإنه لا يوجد فيه تعدد حقيقي، لأن المصلحة واحدة.

وكل حوار جاد ومسؤول يجمع طرفين مختلفين اختلافا حقيقيا، لابد له من أساسين: أساس مهني، وأساس أخلاقي.

1- الأساس المهني للحوار:

يمكننا تحديد الأساس المهني للحوار في قاعدتين: الأولى: قاعدة الورود المشترك، والثانية: قاعدة الصدور المختلف.

أ- قاعدة الورود المشترك:

يقتضي الحوار أن يكون جميع أطرافه قد وقفوا على إشكال معين كل منهم يسعى للمخرج منه، فهذا مورد جمع الطرفين، فينبغي أن يتركز هذا الورود على المشترك من أدلة النفي والإثبات، وأن يتحرى كل طرف عرض الإشكال بأنسب عبارة مفهومة للمخالف، وحجم مناسب مقدور لكليهما، فإذا كانت العبارة غامضة أو حمالة أوجه كانت مظنة سوء الفهم. وإذا عرضت القضايا ومقترحات الحلول فوق مقدور الطرفين، كانت مظنة سوء نية، و"الخلاف المذموم ليس سوى الابن غير الشرعي لسوء فهم أو نية مبيتة"[1]. فإذا فرضنا أن يكون مورد متحاورين حول لباس المرأة، أحدهما يمتح من مصدر النظرة الغربية للأمور، والآخر يمتح من مصدر النظرة الشرعية الإسلامية، فإن احترام قاعدة الورود المشترك

(1) الإسلام والحداثة عبد السلام ياسين دار الآفاق طبعة مارس 2000م. ص:24.

تقتضي ألا يحمل أي طرف الطرف الآخر ما لا يفهم وما لا يطيق، فيلزم الإسلامي أن يجادل عن شرعية الحجاب، بأدلة عقلية يفهمها الآخر، قال أبو إسحاق الشاطبي: «وأما المناظر لإقناع الغير فلابد أن تكون إحدى مقدمتيه مسلمة عند خصمه"[1] كالتعليل بتأثر الرجل بمفاتن المرأة، وانشغال الرجل بالجنس أكثر من المرأة بحسب إحصائيات غربية. واعتبار الحجاب في نهاية الأمر قرار شخصي لا ينبغي لزوج أو والد أو دولة أن يفرضه أو يمنعه، مثل هذا التعليل يدفع ما يفهم بعض الأطراف –خطأ- من أن حرص المسلمين على ستر المرأة يعكس مشكلة جنسية مع المرأة، فيصنف داخل دائرة التمييز ضد المرأة، واعتبرت إحدى الكاتبات[2] ذات خلفية فرنسية قحة، أن من يقول بالحجاب يعتقد بأن الله يكره جسد المرأة. ومن جهة أخرى لا ينبغي أن يسلك الحداثيبالحوار مسلك التحدي بما لا يطاق، لأن ذلك - بقصد أو بغير قصد- دلالة على سوء النية، وقد حدث في المغرب أن أحد المثقفين تحدى وزيرة محجبة بنزع حجابها، إن كانت حقا متحررة، وتؤمن بحقوق الإنسان.

ب- قاعدة الصدور المختلف:

أسلفنا أن الحوار بمفهومه الحقيقي لا يكون إلا بين مختلفين، فإذا تعلق موضوعه بالحوار بين طرفين ينتميان لحضارتين مختلفتين، فإن الاختلاف لا يتعلق فقط بالمشكل موضوع الحوار، وإنما الخلاف في الخلفيتين المتحكمتين في كل من المتحاورين، فينبغي ألا يتوقع المحاور –دائما- أن يصير رأي المخالف إلى رأيه تماما، مهما كانت قوة حججه، فإن القناعة الآنية التي اكتسبها المحاور، لابد أن تتكيف مع مجموع القيم والمبادئ التي يؤمن بها، وهذا يعني أن الاستجابة لمقتضيات الحوار تحتاج وقتا، لتبنيها بشكل طبيعي لا يجعل المقتنع في حال صدام مع خلفيته الفكرية، فيكون الحوار مشرع القلق والتوتر، بدل أن يكون منفذا منهما. وقد يكون الغرض من الحوار تغيير البنية الفكرية للطرف الآخر، فينبغي أن يؤخذ مقدار صلابة تلك البنية، وتعلق صاحبها بها، بعين الاعتبار، وإلا كان الحوار نوعا من العنف والإكراه، قال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ

(1) الموافقات أبو إسحاق الشاطبي ص: 922.

(2) الغريبة مليكة أوفقير ص:153.

كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا "[1]على أن الحوار قد لا يكون –وأحيانا لا ينبغي أن يكون- القصد منه تغيير قناعات أشخاص، أو تغيير بنيتهم الفكرية، وإنما يتم الحوار من أجل التعارف، فالتعارف أبسط وأغلى ما يؤدي إليه الحوار إذا التزم بأسسه المهنية.

2- الأساس الأخلاقي للحوار:

يمكننا أيضا تحديد الأساس الأخلاقي للحوار في قاعدتين: الأولى: الغاية النبيلة للحوار. والثانية: القصد فيه.

أ- الغاية النبيلة للحوار:

كل حوار بين حاملي الرسالات الحضارية لا يدعو إليه إلا هدف نبيل، ولا يقتضي الاختلاف حول الأهداف ألا يكون بعضها نبيلا، فالمحاور وهو يختار الغاية من حواره، سيختار الغاية التي تناسب مصالحه، تلك المصلحة التي يأخذها الطرف الآخر بعين الاعتبار، فيتقدم الحوار بسبب نبل الأهداف، وقد يتركب من أهداف الطرفين هدف مشترك يكون الاتفاق عليه إحدى مخرجات الحوار. ولذا لا يمكن أن تكون سلب حرية أمة وكرامتها، أو شراء عضو الإنسان، أو استرقاقه، هدفا لأي حوار بين طرفين متحضرين.

ب- القصد في الحوار:

يترتب على نبل مقصد الحوار أن تسير وقائعه سيرا قاصدا، لا تهور فيه، ولا إسفاف، يتفادى دائين يقتلان الحوار ويحولانه إلى شكل بدون مضمون هما:

- استعجال الشيء قبل أوانه: ذلك أن الحوار ليس أحكاما قضائية تصدر وتنفذ في أوقاتها المحددة، في صك الحكم، ولكنه تراكم تنضجه عوامل داخلية تتعلق بشخصية المتحاورين وأسلوبهما، ومدى تقاربهما وتعارفهما.. كما تسهم فيه عوامل خارجية تتعلق بأوضاع الأطراف، ومستجدات الواقع. وعجلة المتحاورين قد تصدر عن حسن نية، وقد تدفع إليها نية سيئة.فحسن النية يستعجل الغاية النبيلة التي وضعها المتحاوران لحوارهما،

(1) سورة النساء الآية:94.

فيحمله ذلك الاستعجال على الإخلال بشروط الحوار، وحرق المراحل. وسيء النية يتخذ الحوار وسلة لإبراء الذمة، والتقاط الصور، وتدبيج التقارير، وهو أبعد عن المقصود النبيل المعلن للحوار.

- التباطؤ الممل، الذي يجعل الحوار مسلسلا، غير واضح الحلقات، تنسي مراحله المملة الهدف الذي من أجله يجلس الطرفان للحوار، وكما في الفقرة السابقة فإن تباطؤ الحوار قد ينتج عن المحاور ذي النية الحسنة، حين يفقد حرارة الهدف، ويستأنس بالمرحلة التي وصلها الحوار، ويفقد روح المبادرة وتجديد العزم والأسلوب، وقد يكون الحوار فخا للإيقاع بأحد أطرافه، وقتل الوقت في هوامش الحديث، وإعطاء فرصة لأطراف أخرى ذات صلة بالموضوع، لتغير وقائع الأرض، ويتسنى بالتدريج تغيير أهداف الحوار، وقد يوهم المحاور سيئ النية الأطراف الأخرى بأن الحوار في حد ذاته مكسب، وهو كذلك ما لم يصل حدود العقم، وإضاعة الوقت.

ثالثا: مفهوم المركب الإضافي «حوار الحضارات":

خلصنا إلى أن الحضارة مفهوم حمال أوجه، وخلصنا إلى أحد المفاهيم يفيد بأن كل أمة لها كيان واضح المعالم فإنها تحمل خصائصها الحضارية، تلك الخصائص التي ستجعلها مختلفة عن غيرها، من جهة، ومن جهة أخرى ستدعو إلى الحوار معها، والتعرف عليها، وتجنب الاصطدام معها، في أفق التعاون والتحالف الممكن. فماذا نقصد بالحضارات المقصودة بالحوار في واقعنا اليوم؟ لو لم يتقيد هذا البحث بالتركيز على نقط التماس المشتعلة بين الحضارات، لأمكن الحديث عن حوار واجب بين حضارات الشرق قبل الحديث عن الحوار بين الشرق والغرب، أو بين الشمال والجنوب، فالشرق ليس حضارة واحدة، والمسلون أنفسهمثقافات وأجناس، بل إن رقة الدين في بلاد المسلمين، عرت الخصائص الحضارية، لمكونات الأمة، بالقدر الذي جعل البعض يتحدث عن النزاع العربي الفارسي، أو العربي التركي، أو العربي الأمازيغي. إن الإسلام لم يعد جامعا لمكوناته رغم كثرة الدعوات الصالحة العاقلة لذلك، لا بل إن مجرد الدعوة إلى إسلام جامع قد يكلفك عرضك، وعقيدتك ونيتك، وماضيك ومستقبلك.. فهل يجوز لمن هذا بيته الحديث عن حوار بين حضارة إسلامية جامعة وبين حضارات أخرى؟ الحق أننا نعيش وضعا صعبا في

أوطاننا الإسلامية، يحار الحليم في توصيفه، ولكن مع ذلك فإننا نصر أن يكون الحوار بين الحضارات يعني جلوس أطراف إسلامية أيا كان مذهبها وطائفتها، لمحاورة أطراف الحضارات الأخرى غربية وشرقية، على المستويات الدينية والثقافية والعلمية والحقوقية والاقتصادية والسياسية، ويقيننا أن الخلافات –وليس الاختلافات- بين مكونات الأمة الإسلامية مهما طفحت على سطح الأحداث فإن طبيعة الإسلام الجامعة كفيلة يوما ما أن تعيد اللحمة بين الإخوة، ووحدة المصير الذي نؤمن به وحده كفيل بإنجاز المهمة الصعبة، والعقبات التي تعترينا عقبات موضوعية وليست ذاتية[1]، هذا الإصرار مرده إلى أمرين:

الأول: أنه مهما ادعت هذه المكونات أنها تمتلك خصائص مميزة فارسية أو عربية أو تركية أو أمازيغية فإنك لن تجد في نهاية الأمر إلا الإسلام، بأبعاده المرنة المتعددة المستوعبة لكل شكل حضاري حسب ما يليق به. وتلك الخلافات بين هذه المكونات وإن كانت في حاجة إلى حوار بهذه الفلسفة التي قدمنا، فكل العقلاء يعلمون أن مشكلتنا بشكل واضح هي قرار سياسي، وما عدا ذلك فإنه تجليات لإرادات سياسية منفلتة في غياب العدل ووسائله.

الثاني: أن الحضارات الأخرى –شرقية وغربية- ليست كتلا متساوية الأحجام والألوان، والأطماع.. فالحوار معها منجهتنا نحن المسلمين، يتيح لنا أن تبلغ رسالة الإسلام مداها العالمي، والوقت الذي نفنيه لدعوة الإخوة –الذين أعمتهم العصبيات وأطماع السياسة- للدخول في حوارات وتعاونات وتحالفات، قد يجدي نفعا لنعرض فيه رحمة الإسلام، وعدله، وضرورته، للإنسان، وقد يبعث الله من الغرب أومن الشرق قوما «يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يوتيه من يشاء والله واسع عليم"[2]. ولنا في رسول الله إسوة، الذي لم ينتظر إسلام أهل مكة جميعا، ولا حتى أكثرهم حتى عرض دعوته على باقي القبائل العربية فكانت طفرة الأنصار، ولم ينتظر بعد الهجرة إسلام الجزيرة العربية حتى عرض الدعوة على ملوك الأرض وحضاراتها. ذلك أن الإسلام ليس حجما جامدا، بل هو نور تتلقاه القلوب باستعدادات مختلفة، ويفعل فعله حسب تلك الاستعدادات، وليس من العدل أن يحرم من سماع دعوة الإسلام، صاحب الهمة المتحفز البعيد، انتظارا للمتردد الخامل القعود القريب.

(1) أعني أنها لا تتعلق بذات الإسلام. وإلا فهي متعلقة بذات المسلمين.

(2) سورة المائدة الآية: 54.

وسيكون من الأنسب الإشارة إلى أطراف الحوار بما يحدد مرامي البحث، ويدلل العلاقة بين القارئ وهذا المقروء. إننا نحن المسلمين سنة وشيعة سلفية وصوفية، علينا أن نخاطب - خطابا حضاريا- أمم الأرض كلها، لا نستثني دينا ولا ثقافة ولا دولة ولا منظمة، لأننا أقل الأمم خصوما، ولأننا لا نطمع في أرض أحد ولا ثرواته، ولا استعباده، ذلك لأن عقيدتنا « إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ"[1] أينما كانوا، والمتقون هم الصفوة التي تستحق أن تسمى شعب الله المختار، وتسمى خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ"[2]. وسيحتاج المتحاورون إلى صراحة صعبة يقر فيها كل منهم أن وراءه من أكابر المجرمين من لا يروقه نجاح الحوار بين الحضارات، لأن تواصل الأخيار وتعاونهم يعزل الأشرار، وحتى لا نبدأ حوارنا بالتحامل فيكفي القول: أن الغرب رمى الشرق بالصهيونية المغتصبة القاتلة، وتوابعها الماكرة. فكان رد الشرق هذه المنظمات المفخخة القاتلة. تلك هي عينات من رعونات حضاراتنا ينبغي أن يكون حوارنا صريحا بشأنها، لا مشكل بين اليهود والمسلمين، ولكن لا نقبل - وندعوا شركائنا في الحوار ألا يقبلوا- العنف، عنف الأفراد وعنف الدول. ليست الشخصية المعنوية في الأمم المتحدة كفيلة بحجب عنف منظمة إرهابية اغتصبت الأرض، وشردت شعبها.. هل كان جديرا بنا –وهل يقبل الضمير الحضاري- لو كنا مكان الدول التي مكنت لإسرائيل، أن نمكن لداعش في أي بلد أوروبي أو إحدى الولايات الأمريكية، استنادا لآراء دينية موغلة في العنصرية والعنف؟.

إن أطراف الحوار إذا هي:نحن هذه الأمة الإسلامية المعاقة ماديا من جهة، وهذه الأمم الأخرى المعاقة روحيا، أي أن الطرف «الأول يفتقد الوسائل والثاني يفتقد الغايات حسب تعبير المفكر الفرنسي آلن توران"[3].الضابط هنا قول الله تعالى في كتابه الكريم: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ"[4]. وتقديرنا –بل رجاؤنا في الله تعالى- أن أكثر من في الأرض يودون السلام، ويبحثون عن الحق أيا كان

(1) سورة الأعراف الآية 128.
(2) سورة الحجرات الآية 13.
(3) القديدي أحمد الإسلام وصراع الحضارات ص54.
(4) سورة النساء الآية: 135.

جنسه ولونه ودينه ولغته.. وهذا باعث كبير على العودة للحديث عن حوار الحضارات، وإن ظنه آخرون صيحة في واد.

الفصل الأول: ضرورات الحوار بين الحضارات:

هل الحوار بين الحضارات ترف فكري أم ضرورة ملحة؟ هل هو ضرورة آنية أم قناعة إستراتيجية؟ ثم هل هو من جهتنا نحن المسلمين مصلحة أرضية أم شريعة متبعة؟ تلك بعض الأسئلة التي يعالجها هذا الفصل.

الفرع الأول: حوار الحضارات ضرورة شرعية:

مصطلح الضرورة أصولي مقاصدي من صميم المصطلحات المحورية في ثقافتنا الشرعية، وتستعمل الضرورة للدلالة على معنيين: الأول: معنى الواجب الذي يلزم بمقتضى النص أو القياس أو العقل. والثاني: معنى الإكراه الذي يتيح ارتكاب محظور من أجل التخفيف من وقع الضرورة. وقد أثل علماؤنا أصول الضرورة في ست كليات، تدور أحكام الشريعة على حفظها، من جهة الإيجاد، ومن جهة البقاء، هي: الدين والنفس والعقل والمال والنسل والعرض. وزاد بعض علمائنا المعاصرين في المغرب: الحرية[1]. ولو قصدنا إلى توطين حوار الحضارات ضمن مقاصد الشريعة الإسلامية، لوجدنا له متسعا كبيرا، يستقل بتأليف خاص. ولكن حسبنا أن نقف عند منظومة الحوار في القرآن الكريم، والأهمية الكبرى التي أولاها القرآن للحوار، والخصائص السامية التي يمكننا استلهامها في خوض حوار مع حضارات العالمعلى أن نعود لمقصدية الحوار بين الحضارات في الشريعة كلها لاحقا.

وحسب استقراء متواضع فقد تميزت منظومة الحوار في القرآن الكريم بأربعة خصائص، يكمل بعضها بعضا، ويتجلى في مجموعها ضرورة أن يتحلى المؤمن بثقافة الحوار في مواجهة الغير والحجاج لصالح الأمة والدعوة الإسلامية، الذي لن يكون إن سار على السنن القرآنية إلا حجاجا لصالح البشرية: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ 57 قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ 58"[2].هذه الخصائص هي: المبدئية، الإنصاف، القوة، الرفق.

---

(1) علال الفاسي مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها. منشورات مؤسسة علال الفاسي الطبعة الخامسة 2005م. ص-248 -249 250.

(2) سورة يونس الآية 58.

أولا: المبدئية:

لا يجد المتدبر آي القرآن صعوبة ليدرك أن الحوار مبدأ قرآني للتعامل بين طرفين، لهما وجهات نظر مختلفة، وإن القارئ ليذوب خجلا وهو يرى الباري سبحانه يفسح لخلقه ليحاوروه في قضائه وقدره حين لا يفهمون أبعاده، فلا يحملهم على الامتثال إلا وقد اطمأنت قلوبهم لسر القدر. فما يملك المخلوق أمام الخالق- بعد أن يتبين له سر القدرة الربانية- إلا أنيعلن في استسلام: « أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 259 «[1]ولن أتوقف كثيرا عند فاتحة الكتاب التي تطالعنا بحوار بين العبد وربه يتجاوز وصف واصف وبلاغة بليغ ! ولكني أقف مع القارئ الكريم عند ملامح أخرى - أكثر دلالة على المقصود من هذا البحث كونها تتضمن عنصر الاعتراض الذي أشرنا أنه من دواعي الاختلاف- من صور القرآن بين الباري تعالى وخلقه، كأنها تصرخ أن التحاور ليس عيبا، وأن القرار ينبغي أن يكون وليد قناعة شخصية لا إكراه فيه. الحوار مبدأ في التعامل مع أي فكرة جديدة، إنه حق من حقوق الإنسان، مهما قل شأنه، وإني لأستغفر الله مما بدر مني مما لا يليق بمقام مولانا عز وجل، ولكني أحاول أن أشرك القاري هذا العجب العجاب الذي انتابني وأنا أستعرض تعامل الله مع خلقه في بعض حواراته سبحانه مع ملائكته وأنبيائه:

1 - المشهد الأول:

عند قصة خلق آدم، يحاور الله تعالى ملائكته في شأن آدم الخليفة الذي أختاره ليعمر الأرض:

- فيقول الله عز وجل: إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً..

- قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ.

- قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ 30..

ومع ذلك فلابدأن يميز الله آدم بشيء لتقتنع الملائكة، أنه جدير بالسجود والخلافة في الأرض. «وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِفَقَالَ:

(1) سورة البقرة الآية 259.

- أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ 31.

- قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ 32.

- قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ [1]33.

هل كان ضروريا أن يراجع جبار السماوات خلقا من خلقه في أمر يريده، فلا يحملهم على الإذعان إلا بالحجة البالغة؟.

ولا ينقضي العجب هنا، فإن الشيطان الذي رفض السجود بعد كل ذلك البيان، والاستدلال على أحقية آدم بتلك التحية، واستكبر بما لا مزيد عليه، لم يغلق الباري جل شأنه عليه باب الحوار، فاستمر الحوار..

- "قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ

- قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ 12

- قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ 13

- قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ

- قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ [2]15

- لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا 62

- قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا 63.[3]

سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

(1) سورة البقرة الآيات -30 -31 -32 33.

(2) الآيات إلى هنا من سورة الأعراف -12 -13 -14 15.

(3) سورة الإسراء الآيتان: -62 63.

2 - المشهد الثاني:

سيدنا موسى الكليم، يجد نفسه في حضرة الباري جل جلاله يكلمه من وراء حجاب، فيبدأ الحوار بتعريف موسى بمخاطبه، ومقدمة رقيقة تخفف من ذهول اللقاء، وتمهد لصلب الموضوع: « يَٰمُوسَىٰٓ 11 إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى 12 وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ 13 إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ 14."[1] ثم يبدأ الحوار بإيقاع مناسب لموسى في موقف مفاجئ يخاطبه ربه كما لم يخاطب أحدا قبله:

- وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ 17 «.

- قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ 18" ترى هل كان الكلام عن العصا مناسبا في حضرة ملك الملوك؟ وكيفما كانت الحكمة التي يقررها أهل التفسير[2]، فموسى الآن يمارس حقه في الحوار مع ربه.

- قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ 19 فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ 20، قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ 21"[3]." ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ 32

- قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ 33 وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ 34

- قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ 35."[4]

وينطلق موسى لأداء رسالته وكله إيمان برسالة ربه ووعده، وقد وقف على برهان صدق رسالته التي يحملها بعزم الموقن. ويجتاز البحر ببني إسرائيل، ثم يستدعى للميقات وكله

(1) سورة طه: الآيتان -13 14.

(2) قيل إن موسى أطال في ذكر منافع العصا «لأنه كان يحب المكالمة مع ربه" التفسير الكبير أبو عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي. دار الكتب العلمية 2004م. بيروت 23/4.

(3) إلى هنا الآية من سورة طه الآيات: -17 -18 -19 -20 21.

(4) سورة القصص الآيات -32 -33 -34 35.

شوق لذلك الحوار الذي افتتح به رسالته إلى فرعون وقومه. لكن الكليم هذه المرة لم يكن خائفا كما كان، بل تاقت نفسه لأمر أعظم من الكلام من وراء حجاب. «وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ !" أليست هذه جرأة في موازين أهل الدنيا، يسد من أجلها الحوار ويطرد صاحب الطلب، أو يبلغ القرار بدون مناقشة طلبه. لكن الباري لم يرد لموسى طلبه، بل أوقفه على استحالة الاستجابة لطلبه في الدنيا:

- قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ 143 «[1].

وكأني بموسى ليلة الإسراء قد علم من محاورته لله عز وجل في الدنيا، أنه سبحانه لا يرفض محاورة عباده، فيما يفرض عليهم، فيعترض طريق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، في حياته البرزخية، وقد حمل لأمته خمسين صلاة في اليوم والليلة، فيرده موسى ليطلب التحفيف من ربه لأن أمته لا تطيق خمسين صلاة، وفي كل مرة يستجيب الجبار سبحانه ويضع عشر صلوات حتى بقي خمس واستحيى النبي صلى الله عليه وسلم من مراجعة ربه[2].

ثانيا: القوة:

كل من أنصف علم أن أكبر سلاح واجه به القرآن المخالفين هو البرهان، الذي يزلزل قواعد الفكرة المخالفة من داخلها، وقد خط القرآن قانون الجدل والتحاور بين المخالفين بقوله: «قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ 111"[3]. ونهى الإنسان أن يتجشم ما لا يدرك مغزاه فقال: «ولا تقف ما ليس لك به علم"[4]. وسنقف هنا عند مشاهد من قوة الحوار في القرآن التي تعلمنا أن نتخذ أسباب القوة –لا العنف- ليكون حوارنا أهلا للمجادلة عن الحق الذي

(1) سورة الأعراف الآية: 143.

(2) متفق عليه: صحيح البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي. دار ابن كثير طبعة 1992م. كتاب التوحيد باب قول الله وكلم الله موسى تكليما. حديث رقم: 7059. صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري دار إحياء الكتب العربية.بدون تاريخ الطبعة. كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله إلى السموات وفرض الصلوات حديث رقم:234.

(3) سورة البقرة الآية 111. وتكرر المعنى في سورة الأنبياء «قل هاتوا برهانكم" الآية24.

(4) سورة الإسراء الآية 36.

نعتقده، وقوة الحوار تتجلى في أمرين: الأول: الإبداع الذي يثمر عنصر المفاجأة للخصم، ويفتح آفاقا للحوار لم تكن متوقعة له، الثاني: محاكمته بما يعتقد ويقول، وسنرى هذين العنصرين في المشهدين:

1 - المشهد الأول:

إبراهيم الخليل عليه السلام، بعد ما اهتدى إلى خالقه، وكلف مهمة تبليغ الرسالة لقومه عبدة الأصنام، الحجرية والبشرية، يهيأ مشهدا حواريا يليق بعرض رسالة الإسلام الحنيف على قوم سادرين في طقوس فارغة، لا يبررها إلا تتابع الآباء على انتحالها. يروغ إبراهيم إلى الأصنام فيحطمها كلها، إلا التمثال الأكبر يتركه ويعلق الفأس في رقبته[1]، ليكون المشهد حسب اعتقاد قوم إبراهيم: هذا الصنم الكبير غضب على هؤلاء الصغار، لأي سبب، فينبغي أن تحترم إرادة الإله الكبير، ما دام قد قرر التخلص منهم. فلما وقف إبراهيم أمام محكمة النمرود الذي تجاهل تلك النتيجة المناسبة للمقدمة التي يعتقدون:

- "قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ 62

- قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ 63 فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ 64 ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ..

- لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ 65"

هكذا ألزموا أنفسهم الحجة وحكموا على موقفهم بالبطلان، فكان مناسبا أن يخلص إبراهيم لصلب الموضوع:

- قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ 66 أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ 67"[2].

(1) تفسير البغوي الحسين بن مسعود البغوي دار طيبة. ج:5. ص:325.

(2) سورة الأنبياء الآيات: -62 -63 -64 -65 -66 67.

ثم يظهر للنمرود - بعد أن حاول القضاء على إبراهيم، وكانت حكمة الله ولطفه محيطة بكيد الظالمين- أن يستفيد من هذا الدرس ويعد لإبراهيماختبارا يوازي ما قام به في مواجهتهم، فاستدعاه ليجعله أمام مسلمة واقعية تنقض ما يعتقد إبراهيم ويدعو إليه:

- "إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ

- قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ

يقصد أنه حين يحكم على شخصين بالإعدام ويعفو عن أحدهما فقد أحيا وأمات[1]. وكان ممكنا أن يحقق معه إبراهيم في معنى الإماتة والإحياء، لكن ذلك سيطيل الحوار، وربما يدخله في تفاصيل لن يتبين للجمهور المتابع الغالب من المغلوب، سيما والجمهور على رأي النمرود، ويتملقون إليه بأتفه الأسباب، فيغير إبراهيم الاتجاه، دون أن يعترض على موقف النمرود، بل يتخذ دعوى النمرود أساسا لهذه الدعوى الجديدة التي على النمرود أن يقبلها ما دام قد ارتدى لباس الألوهية بدعوى أنه يحيي ويميت، ودعوى إبراهيم لن تخرج عن جنس الخصائص الألوهية التي لا يطيقها مخلوق، فيجيب إبراهيم بوضعية جديدة يقول:

- " قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ". ليس هذا إعجازا للمحاور، بل محاكمته بما يعتقد، وحسب منهجه في الحوار. «فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ 258"[2].

2- المشهد الثاني:

مع مشركي قريش، الذين تتميز بيئتهم بأمور منها أمران: اهتمامهم بالبلاغة والشعر، بما لا تجده عند قوم آخرين، فالكلمة عندهم توزن بالذهب، مدحا وهجاء. والثاني عقليتهم الذكورية بحيث لا يجدون مكانا يليق بالمرأة غير الفراش، وولادة الفرسان، حماة القبيلة، وقد حاورهم الله تعالى بناء على هاتين الخاصيتين: فحين يدعون أن الملائكة بنات الله يذكرهم الله تعالى بأن البنات في عرفهم معرة، ومنقصة، فكيف يرضون لربهم ما لا يرضونه لأنفسهم،

(1) تفسير الطبري محمد بن جرير الطبري الجزء الخامس ص:432.

(2) المشهد كله من سورة البقرة الآية 258.

قال تعالى: « وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ "[1] «أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا40"[2]. وأعجزهم في الخاصية الأخرى، حين ادعوا أن ما يتلوه محمد إن هو إلا « أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ"[3]. فيأتي البيان القرآني يتحداهم –بناء على دعواهم وهم فرسان البلاغة- ويتحدى العوالم كلها معهم: « قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا 88"[4] أو يأتوا «بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ"[5]، أو يأتوا" بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ"[6].

لقد كان الحوار الذي يواجه به القرآن مشركي قريش من القوة بحيث يتفادون سماعه هروبا من براهينه المنبلجة، «وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ5"[7] وهذا سيد منهم، وأحد عقلائهم، هو عتبة بن ربيعة، يفاوض النبي صلى الله عليه وسلم في ترك دعوته مقابل المال أو الجاه، أو الرياسة.. فيصغي له صلى الله عليه وسلم، حتى إذا فرغ استأذنه في الجواب، فلما أذن له افتتح له سورة فصلت فما كاد يصل إلى عاد وثمود، حتى أمسك عتبة بفم رسول الله يغلقه، ويناشده الرحم أن يكف عنه هذه الحجج التي لا يطيقها، ولو كانت قوة الحوار تثمر استجابة الناس دائما لما بقي مشرك في مكة منذ السنة الأولى لمبعثه صلى الله عليه وسلم، ولكنها سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ثالثا: الإنصاف:

يمككنا الوقوف على ملامح واضحة من الإنصاف الذي يتميز به الحوار في القرآن الكريم، من خلال أمرين كبيرين: الأول: التمييز بين مستويات الخصوم. الثاني: استعمال القواعد المشتركة مع المحاور.

(1) سورة النحل الآية 62.
(2) سورة الإسراء الآية 40.
(3) سورة الأنبياء الآية 5.
(4) سورة الإسراء الآية: 88.
(5) سورة هود الآية 13.
(6) سورة البقرة الآية 23. سورة يونس الآية 38.
(7) سورة فصلت الآية:5.

1 - التمييز بين مستويات الخصوم:

هذه هي الخلفية الفكرية للخطاب القرآني في مجال الحوار، التمييز بين مستويات المخالفين، لما عند بعضهم من علم، واستعداد لقبول الحق، وهي الضامنة ليكون الحوار الذي يجريه القرآن، أو من يتمثله من أتباعه، حوارا منصفا، وقد ميز الله بين الوثنيين وأهل الكتاب، اعتبارا لما عند أهل الكتاب من بقايا علم النبوة الأولى، فأحل الزواج منهم، وأحل ذبائحهم[1]، واستدعى شهادتهم للحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم[2]. ثم ميز بين عموم النصارى واليهود في استعدادهم لقبول دعوة الحق، واحترام المسلمين، فقال تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ «[3]والتفاضل بين اليهود والنصارى في علاقتهم بدعوة الإسلام، إنما هو باعتبار المجموع، وإلا فإن كثيرا من علماء اليهود أنصفوا دعوة الإسلام وسجل القرآن الكريم إنصافهم هذا. كما ميز بين اليهود أنفسهم، فبعدما عرض القرآن الكريم عدوانهم على دعوات الأنبياء قبل الإسلام، وإصرارهم على ذلك العدوان على دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، عاد ليدفع العموم المتوهم، لإنصاف الفضلاء من اليهود الذين يراعون مقتضيات التوراة، فقال تعالى: «۞لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ 113"[4]. بل ميز بين المشركين حسب احترامهم للجوار، ومعاملة المسلمين معاملة الخير، فأمر أتباعه بالقسط لهم، والبرور بهم. قال تعالى: «لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ8"[5]. وعموما فقد انتهى علماء المسلمين إلى أن الإسلام يتعامل مع غير المسلمين حسب أربع مستويات: الذميون، المستأمنون، والمعاهدون، والمحاربون، وكل خطاب قرآني فيه شدة وتحريض على المخالف فإنما ينصرف لهذا الصنف الأخير، وهذا

(1) سورة المائدة الآية:5.
(2) سورة الأحقاف الآية 10.
(3) سورة المائدة الآية 82.
(4) سورة آل عمران الآية 113.
(5) سورة الممتحنة الآية 8.

ملمح لا يفهمه الكثير ممن يتهمون الإسلام بأنه لا يتحاور، أو لا يتسامح، فيحملون الآيات التي تتناول فقه الحرب مع المحاربين فيسقطونها على المعاهدين والذميين والمستأمنين، وهذه خيانة علمية، وسقوط حضاري، ينبغي أن تتنزه عنه أطراف الحوار بين الحضارات.

2 - القواعد المشتركة مع الآخر:

سبق معنا قول الفقيه المقاصدي أبو إسحاق الشاطبي: «وأما المجادل لإقناع الغير فلابد أن تكون إحدى مقدمتيه مسلمة عند خصمه" ونحن نعلم أن هؤلاء الكبار من علماء الإسلام لم يكن لمعرفتهم مصدر أكبر من القرآن الكريم. ومقتضى هذه المسألة ألا يتعالى أحد المتحاورين على الآخر، وألا يلزمه المسلمات التي لا يسلم بها أصلا، وقد حاور القرآن أهل الكتاب بمقتضى هذا الأصل كما حاور مشركي العرب أيضا. حاور النصارى في النقطة المركزية التي تفصلهم عن المسلمين، وهي بنوة عيسى لله عز وجل، وقد احتج عليهم القرآن بدليل يعتقدونه ويؤمنون به، وهو آدم، الذي يقرون كما يقر المسلمون أنه خلق من غير أب ولا أم، فالذي خلقه على هذا النحو قادر على أن يخلق عيسى من أم دون أب، من باب أولى، قال تعالى: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ59"[1]. ثم بعد أن يلج النصارى في اللجاج، ويتجاهلوا منطق الحجاج، يأتي ليباهلهم وفق العقيدة المشتركة، وهو حوار مقبول بين أهل الأديان السماوية الذين تأبى عقيدتهم الكذب، والتعرض للعنة الله على الكاذبين. فيقول تعالى: «فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ61"[2]. وبعد ذلك يخلص القرآن الكريم إلى أن الغاية التي يدعو لها أهل الكتاب إنما هي الكلمة السواء التي لا ينبغي أن تكون موضوع خلاف بين أتباع الأديان: «قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ 64"[3].

(1) سورة آل عمران الآية 59.

(2) سورة آل عمران الآية 61.

(3) سورة آل عمران الآية 64.

فإذا وصلنا إلى الحوار مع المشركين نجد القاعدة ثابتة والأمثلة مختلفة، فما يعتقده المشركون الوثنيون يختلف كثيرا عما يعتقده أهل الكتاب، وقد حاول القرآن إلزامهم منطق الحوار الذي لا يأبهون به كثيرا، لقد كان العنف الجاهلي الذي توارثته العرب، حائلا بينهم وبين سماع كلمة الحق، واستقطع منهم حق المسلمين في الاختلاف عما هو سائد في بلادهم، «فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمُۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ 15 «[1]. ثم بعد أن يستوي عود الدعوة الإسلامية ينبه القرآن الكريم أتباعه، إلى ما كان يدعوا إليه غيرهم، من وجوب إنصاف الخصم، وأن لا يحول الخلاف العقدي بينهم وبين الإنصاف الذي هو لازمة الحوار والعلاقة بين المكونات البشرية في الأرض: «فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ 22 أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ 23 أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ 24"[2]الاعتداء بالحرمان من حق التدين، ومنع المسلمين من زيارة المسجد الحرام كسائر العرب، لا يمنع أتباع القرآن من إنصاف خصومهم وأعدائهم، « وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ 2 «[3].

ثم إذا خلص القرآن إلى صلب الحوار مع المشركين، حاججهم بالمشترك من قواعد المنفعة والمضرة، التي تميز الإنسان، فضلا عن المعبود، فكيف يعبد من لا يملك حتى خصائص الذين يعبدونه؟ «أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ"[4]. تلك المنفعة الدنيوية أدنى ما ينبغي أن يتوفر لمعبود، ترجى منفعته بعد الموت: « وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا3"[5]. فإذا استغشى الناس ثيابهم، وأصروا واستكبروا استكبارا يرد القرآن إيقاع الحوار إلى الحدود الدنيا التي لا يجادل

(1) سورة الشورى الآية 15.
(2) سورة محمد الآية 24.
(3) سورة المائدة الآية 2.
(4) سورة الأعراف الآية: 195.
(5) سورة الفرقان الآية 3.

فيها أحد، وهي أن الحق ثابت مع أحد الطرفين،وأن من يملك الحق لن يتضرر بما يقول به الآخر من الباطل، دون أن ينسب هذا الحق للإسلام، احتراما للمقدمات التي لدى المخالفين، « وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ 24 قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ 25"[1]. هذه القاعدة التي خصصت لها سورةمستقلة سميت باسم المخالفين الكافرين، إنه الإنصاف القرآني في الحوار الذي قامت عليه السموات والأرض، فهل هناك مخرج للخلافات الحضارية بيننا غير الحوار؟

رابعا: الرفق:

سبق الحديث عن ضرورة الأساس الأخلاقي للحوار، وها قد سنحت الفرصة للإطلال على البيان القرآني الذي يعطي المثل الأعلى في تخليق الحوار بين كل مختلفين، وقد اكتفينا بنعت الحوار القرآني بالرفق، لأن خلق الرفق هو الحاجة الملحة لكل حوار بين الحضارات، فالرفق كفيل بالتفاهم والتعارف الذي يمكن أن يفضي إلى التعاون أو التحالف. وسيجد المتدبر آي القرآن طافحة بالرفق أسلوبا ومضمونا. فعلى مستوى الأسلوب يوصي القرآن المسلم أن يختار مفردات كلامه للناس من أجود العبارات، قال تعالى: «وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا"[2]. والمعهود في الخطاب القرآني أنه عندما يعبر بالناس فإنه يقصد إدراج غير المسلمين[3]في دلالة الخطاب، وجميع رسالات الأنبياء في الخطاب القرآني، مرصعة بأساليب التقريب والتحبيب وطول النفس وهذا هو الرفق، فلم يترك القرآن مناسبة ليعبر فيها عن كون الرسل أقرب إلى أقوامهم، وأنهم منهم، نسبا، فعبر عن أخوة الأنبياء لأقوامهم[4]، وكذلك خطاب الأنبياء حين يضيفون الأقوام عند مناداتهم لأنفسهم، وقد عبر القرآن الكريم صراحة عن مقصدية الرفق في محاورة الناس في أمر الدعوة، فقال: « وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ"[5]. وتجنبا للإسهاب، أترك القارئ يتأمل مقطعا قرآنيا رائقا، زاخرا بمعاني الرفق، وتقليب الأساليب وطرق القلوب من كل الجهات، بخطاب حار مشفق على المصير الخطير

(1) سورة سبأ الآيتان: -24 25.

(2) سورة البقرة الآية: 83.

(3) تفسير الطبري الجزء الأول ص:363.

(4) كقوله تعالى: وإلى عاد أخاهم هودا. الأعراف 65. وقوله: وإلى ثمود أخاهم صالحا. الأعراف 73. وإلى مدين أخاهم شعيبا. الأعراف 85. وقد تكرر هذا الأسلوب في سور أخرى.

(5) سورة إبراهيم الآية: 4.

الذي ينتظر الإنسان وهو يرحل من هذه الدنيا دون أن يتعرف مولاه، قال تعالى على لسان شيخ الأنبياء نوح عليه السلام:

« وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ 25 أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ 26 فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ 27 قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ 28 وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ 29 وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ 30 وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ 31 قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ 32 قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ 33 وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ 34 »[1]. سيحتاج القارئ إلى لحظة صفاء لقراءة هذه الآيات قراءة مجلية لمعاني الرفق المتضمنة فيها بالعبارة والإشارة، حتى إن المتدبر ليكاد يسمع زفرات سيدنا نوح، وتأوهاته أسفا على قومه. هذا على مستوى الأسلوب.

أما سلوك الرفق في الحوار فيمكن الوقوف عند قاعدتين مطردتين في سلوك الحوار الذي يدعو إليه القرآن الكريم: الأولى قاعدة الدفع بالتي هي أحسن، والثانية: قاعدة الصفح والعفو.

1 - قاعدة الدفع بالتي هي أحسن:

إذا كان القرآن الكريم يأمر أتباعه بأن يقولوا للناس –كل الناس- قولا حسنا، فقد خص المخالفين أثناء الحوار معهم بمزيد من إحسان الخطاب، فقال تعالى: «۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ". استثنى الظالمين وهم المعتدون المحاربون كما أشرنا، وتابعت الآية ترشد المسلمين لبعض مدلولات الرفق في الحوار والمجادلة تقول:

(1) سورة هود الآية 34.

«وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ46"[1]. فالمؤمن الذي ينطلق من القرآن ليحاور الأغيار، معرض للهجوم بأساليب لا تمت إلى الأخلاق بصلة، ومع ذلك فرده ينبغي أن يكون أحسن ما يمكن، قال تعالى: «ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ"[2]. ونبه للفائدة المرجوة لقاعدة الدفع بالتي هي أحسن، لصالح الدعوة الإسلامية، فقال: «ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ34"[3]. وسياق هذه الآية حول رسالة الداعي إلى الله، وكيف يبلغها بأحسن أسلوب أقرب إلى نيل المطلوب من الدعوة.

2 - قاعدة العفو والصفح:

لا ينتظر القرآن ممن يحاورهم بالتي هي أحسن أن يردوا التحية بمثلها، في جميع الأحوال، بل المتصدي لمحاورة الناس في أمر الإسلام، لا بد أن ينتظر من تميل به الأهواء، ومن يضمر الكيد تحت لسان دلق بالكلام المعسول، وفي جميع الأحوال فإن الحوار ينبغي أن يتجاوز كل تلك العثرات، ويستشرف الأفضل، قال تعالى: بشأن اليهود الذين تفطرت قلوبهم حسدا وبغضا، بعدما تبينت لهم أمارات الحق في دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد بالغ في مجادلتهم بما لا يملكون عليه مزيدا: «وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ 109"[4].

وفي سياق حواري يمهد فيه القرآن نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم. لردود أهل الكتاب، حول القضايا الخلافية بينه وبينهم، وقبل أن يثير تلك القضايا، - سواء منها ما يتعلق بميلاد النبي عيسى، وما يدعيه اليهود والنصارى من أفضلية على سائر الأمم، كونهم أبناء الله وأحبائه، وتاريخ بني إسرائيل وشريعتهم وتخلفهم عن مقتضيات تلك الشريعة- ندب الله رسوله الكريم، ليتحمل استفزازات أهل الكتاب حين لا يجدون جوابا في مستوى

(1) سورة العنكبوت الآية 46.
(2) سورة المؤمنون الآية:96.
(3) سورة فصلت الآية 43.
(4) سورة البقرة الآية 109.

حجة القرآن الكريم، فقال تعالى: «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ 13"[1].

الفرع الثاني: الحوار ضرورة واقعية:

ما هو الواقع؟ سؤال لا يتحدد جوابه نظريا، بل بقدر ما نولي من أهمية لعناصر الإجابة، لكن–مبدئيا- يمكننا الاتفاق على أن الواقع يتحدد بثلاثة عناصر هي: الإنسان (بوصفه مديرا للطبيعة في الحيز الزمني المتاح) والأرض(بكونها مجال حركة الإنسان وتطوره ونجاحه وإخفاقه وحياته وحتفه) والزمن(كونه شرط اللقيا بين الإنسان والأرض بما يكفل معالجتها واستنطاقها واستغلالها). وإذا كان الإنسان عنصرا مجمعا عليه في مفهوم الواقع، الذي يرتب الضرورات، فإن مفهوم الإنسان أيضا معرض لكثير من الجدل، هل الإنسان بنفسه (أي بوصفه كائنا حيا له حق الحياة) أم بعقله (بوصفه عاقلا متفكرا له حق الرأي) أم بجسمه (بوصفه جرما متحيزا له حق الحركة والأمن) أم بروحه (بوصفه مخلوقا لخالق من حقه التعرف عليه والتقرب إليه والامتثال لإرادته)؟ وإذا سلمنا بوجود الإنسان بهذه الأبعاد –وهذا غير مسلم به عن البعض- فهل هي متساوية الأهمية في تحديد مفهوم الإنسان؟ وقبل الخوض في تفاصيل هذه العناصر نبادر بالقول: إننا جميعا –سكان هذه الأرض- مهما افترقت مصالحنا، ونحلنا، وتقديراتنا فإن الواقع ببعده الإنساني والطبيعي والتاريخي، مشترك يهمنا الحفاظ عليه من جهة الإيجاد، والعدم، «هذا الواقع ليس مجرد امتداد للحضارة العربية الإسلامية، ولا مجرد امتداد لأوروبا المعاصرة"[2]بل هو معطى أزلي يحمل مقومات العيش المشترك بين سكان الأرض، إن لم نقل سكان الكون، من جهة، وهو صنعة الإنسان وكسبه بما أسهم في تطويره وتطويعه وإفساده والعربدة فيه أيضا، من جهة

(1) سورة المائدة الآية 13.

(2) «مقالة في الحرية" عزمي بشارة المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات ط الأولى 2016م. ص15.

أخرى، هو ذا الواقع المشترك، الذي يدور حوله حوار الحضارات، وسيكون الواقع المشترك موضوع هذا الفصل –بحول الله- بكل أبعاده المذكورة[1]:

أولا: محور الإنسان:

لعل من الواضح الآن أن الإنسان في هذا المكتوب حياة وعقل وجسم وروح، لنبدأ بالمتفق حوله عن الإنسان، ألا وهو حياته ووجوده، ونؤجل رأينا الشخصي في أهمية عنصر على آخر لنهاية الفرع إن كان لابد من ترجيح أحد العناصر أهمية:

1 - الإنسان حيا:

حق الحياة أحد الشعارات الرائجة، في واقعنا المعاصر، لكنها تتعثر حين يحيف الجهل وتصبح حياة الإنسان مجرد مقابل بخس، لنزوة عاطفية، أو غطرسة مسلحة. إن حق الإنسان في الحياة لم يتم الاتفاق بشأنه، وإن تجاوزه قسرا، وهذا يلح على دعاة الحوار الحضاري أن يستحضروه باعتباره ضرورة واقعية مشتركة، وسنتجنب الإغراق في التنظير الفلسفي لحق الحياة، بربط التنظير بنموذجين ماثلين للدلالة على ما يتهدد حياة الإنسان، ويلزم أطراف الحوار بالجلوس سويا، لاتخاذ قرار مشترك يليق بالضرورة المشتركة: النموذج الأول الصناعة غير الإنسانية، والثاني: عقائد القتل والتدمير.

أ- الصناعة غير الإنسانية:

في أدبيات الثقافة المعاصرة، تعتبر الحروب التي تنشب بين القبائل قديما دلالة على بداوة المجتمع، وبعده عن الحضارة، ليكن الأمر كذلك، لأنها –بالفعل- حروب غير عاقلة، تنشب من أجل قتل شخص واحد، فإذا بها تفتك بأضعاف مضاعفة المقتول، وبينما تنشب بدعوى العزة والكرامة، إذا بها توقع في الأسر والسبي كثيرا من دعاتها عشاق الحرية والكرامة ! هل هي حروب عاقلة فعلا؟ غير أنه يوجد في تلك البيئة البدائية من يقف ضد الحرب، ويكشف عبثيتها، لنأخذ على سبيل المثال –من تاريخ العرب القديم قبل الإسلام-

(1) الفصل تناول الإنسان والأرض، ولم يتناول عنصر الزمن استغناء بما تقتضيه علاقة الإنسان بالأرض من وجود الزمن واستثماره أحسن استثمار. وتجنبا للإطالة التي لا تناسب هذا البحث.

حرب داحس والغبراء، التي ورطت عبس وفزارة في حرب طاحنة بسبب سباق كان إلى اللهو أقرب منه إلى الجد، وبينما غضبت فزارة لمقتل مالك بن حمل ابن سيد القبيلة، فقد أدت الرغبة في الانتقام إلى مقتلة عظيمة بين الفريقين، لكن في الطرف المقابل يوجد من يفكر بالإنسان، بل يضحي من أجله بالسعي الحسن والمال الوفير، كما فعل هرم بن سنان والحرث عوف[1]، وقد أبدع زهير بن أبي سلمى في وصف النفحة الإنسانية لعوف والحرث، وللأثر المدمر العابث للحرب، بما يحسن بنا استحضاره في سياق الحديث عن المشترك الإنساني، الذي أضر به الإنسان نفسه، يقول زهير في شأن رجلي المبادرة السلمية:

يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما ... تفانوا وذقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما: إن ندرك السلم واسعا ... بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين في عليا معد هديتما ... ومن يستبح كنزا من المجد يعظم
تعفى الكلوم بالمئين فأصبحت ... ينجمها من ليس فيها بمجرم
ينجمها قوم لقوم غرامة ... ولم يهريقوا بينهم ملء محجم
فأصبح يجري فيهم من تلادكم ... مغانم شتى من إفال مزنم

ثم يصف الحرب التي تنشب بإرادة طرفيها، لكنها تتجاوز ما أرادوا بطحن الإنسان طحنا مضاعفا يتجاوز ما يقدرونه عند إضرامها، وأخطر من ذلك الضغائن التي تخلفها بين الأجيال:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها ... وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ... كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم...

لتكن تلك الحروب دلالة على ما قبل الحضارة، لكن ماذا نسمي الحروب الحديثة؟ التي كلفت الحياة الإنسانية غاليا؟ أربعون عاما من الحرب الباردة أسفرت عن خضوع الإنسان

(1) شرح المعلقات السبع أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بدون ذكر تاريخ الطبعة. ص98.

المعاصر لشهوة الانتقام، صناعة حربية غير إنسانية في صنعها ولا تسويقها !أي خلفية حضارية تحكم صانع سلاح يسحق الملايين من الأرواح في رمشة عين؟ وأي ضمير ذلك الذي يحمله من يضغط الزر ليقتل الآف الأبرياء في هيروشيما وناجازاكي والعراق وأفغانستان؟ لقد عشنا جميعا فصول الحرب على العراق، التي كانت فاتحة سوء على المنطقة والعالم بأسره بطريقة أو بأخرى، تلك الحرب التي دشن بها من يسعون إلى الحرب بين الحضارات، الحرب الحضارية الأولى، كما سما الدكتور المهدي المنجرة.لقد أصبحت حياة العراقيين وجنود التحالف المورطين في تلك الحرب على حد سواء، وقودا لنزوات جامحة:

- "لتثبيت أحادية القطب.

- لوقف تقدم محتمل للعراق على مستوى الصناعة المدنية والعسكرية.

- لإزاحة مركزية العراق ثقافيا وحضاريا.

- لاستعادة الزمام في مرحلة ما بعد الاحتلال المباشر، عبر إعادة رسم المنطقة"[1].لو كانت قداسة الإنسان ترن في آذان دعاة الحرب، لتوقفت من أول يوم، أو على الأقل لتوقفت بعد اعتراف النظام العراقي –ضمنيا- بعبثية احتلال الكويت. لكن يبدو أن الإنسان غائب حسبانه في أروقة تلك الحرب وفي أكثر الحروب. ليس بوسعنا الآن القول بالاستغناء عن الجيوش النظامية، ومنع تفريغ الناس لحمل السلاح والتجند الدائم، كما يقول كانت[2]. لكن النتائج المدمرة للحرب الحداثية - كما سماها أحد الحكماء[3]- تسائل الضمير الحضاري، وتطرح سؤالا جديا عن تحقق الإنسان المعاصر بوصف الحضارة، بمفهومها التقويمي، الذي يعني –بداهة- تقدم الإنسان المعاصر على الإنسان البدائي القديم بما لا مجال للمقارنة، لقد رأينا قبيلتين تنتميان للعصر الوسيط تقتتلان لأتفه الأسباب، لكن رأينا تلك القبيلتين

(1) الحرب الحضارية الأولى المهدي المنجرة مطبعة الشروق الطبعة العربية السابعة 1995م. ص 50 وما بعدها.

(2) مشروع السلام الدائم إيمانويل كانط. ترجمة وتقديم عثمان أمين. مكتبة الأنجلو المصرية 1952م. القاهرة مصر. نص كانط في المادة الثالثة من المواد التمهيدية لتحقيق سلام دائم بين الأمم على أنه: «يجب أن تلغى الجيوش الدائمة إلغاء تاما على مر الزمان" ص 28.

(3) الإسلام والحداثة ياسين عبد السلام. ص49.

تنصاعان لمبادرة إنسانية سعت لحن دم الإنسان، فهل فقد العالم من يقوم بما قام به هرم بن سنان والحرث بن عوف؟ أم فقد الضمير الحي لقبيلتي عبس وذبيان؟

لقد فتكت الصناعة غير الإنسانية بأرواح البشر على مستويين: الأول: مستوى القتل المباشر. بقتله في حروب لا يعرف سببها، ولا أهدافها، وتنويع أشكال القتل الذي يأتي الإنسان من الأرض ومن الجو ومن البحر، يقتله خنقا، وتمزيقا، وتحت الهدم. والثاني: مستوى القتل البطيء، بتسميم الأجواء والمياه والغذاء وكل مصادر الحياة، وإذا كان دعاة الصدام يدفعون بأن تكاثر الناس وتزايد الحاجات يلزمنا هذه الصناعة الغذائية الموبوءة، فإن دعاة الحوار ينبغي أن يسعوا لإنهاء شهوات الانتقام، وتوفير الجهد والثروة التي تضيع في هذه الحروب الكارثية لتغذية الإنسان تغذية سليمة، وتوفير البيئة المناسبة لحياته.

ب- عقائد القتل والتدمير:

كيفما كانت درجة معرفة الإنسان بأي دين، سماوي أو أرضي، فلا يملك إلا أن يعتقد أنه لا يمكن أن يكون من تشريعه قتل الإنسان دون سبب وبأشكال فضيعة وحجم ذريع. ومحاكمة جميع أتباع أي دين ينزلق بعض أتباعه للقتل والتدمير لأسباب ما، جزء من عقيدة القتل والتدمير التي تتحين الفرصة للقتل، بدل أن تستقصي أسباب الحياة، هذا الدين الإسلامي يصدق ما كانت عليه الديانات قبله: «كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا"[1]هذا إعلان مشترك يمثل كل الديانات الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام، إنه إعلان أغلب سكان الأرض. ذلك أن الدين بوصفه جنوح الروح الإنسانية للسلم الغيبي، يتناقض مع دعوات القتل.

ليست عقائد القتل مجرد ردود أفعال عن القتل الأول، وإن كان هذا أحد أهم أسباب الصراع، وقد أشرنا إليه سابقا، ونعود إليه ضمن عقبات الحوار بين الحضارات، لكن هنا نتحدث عن العقيدة، وليس عن رد الفعل،يوجد في كل الحضارات –على الأقل في الغرب المسيحي والشرق الإسلامي- توجهات تؤمن بالقتل وسيلة للتواصل مع الشعوب الأخرى، لا

(1) سورة المائدة الآية: 32.

بل إنها تعتقد به في إخضاع المخالفين لمذهبها في نفس الحضارة، وهناك فكرة مدمرة توجد لدى بعض اليهود والنصارى والمسلمين على السواء، وهذه الفكرة لها وجهان: فمن جهة تقوم على أصل ديني صحيح مشترك بينها، لكن بعضهم يؤله تأويلا عنيفا، الأصل الصحيح هو: أنه في آخر الزمان سيظهر رجل يطهر الأرض من الظلم، ويمكن لأهل الحق، وسيظهر هذا المنقذ على حين عنف وسيلان دم، ليس المشكل بالنسبة للحوار بين الحضارات في أن كل طائفة أو حضارة لها تأويل خاص فيمن يكون هذا الرجل؟ وما هي ديانته؟ المشكل أن بعضهم يرى في القتل والتدمير، الوسيلة لتهيئة الأجواء لظهور ذلك المنقذ ! فيكون الوضع هو الاستمتاع بمشاهد القتل المروعة، لأنها في اعتقاد –هؤلاء- مقدمات لظهور الرجل الذي ينهي عهود الاستضعاف لصالح المؤمنين به. هذا الهوس العقدي يوجد عند بعضنا نحن المسلمين السنة[1] وهو الذي بنى عليه التنظيم الإرهابي في العراق والشام أطروحته التي استقطبت كثيرا من أبناء المسلمين الشباب في الشرق والغرب. وتوجد عند بعض المسلمين الشيعة بطريقة أخرى[2]، وأجزم أنها أسهمت في تأجيج الصراع الطائفي في منطقتنا، كما توجد عند اليهود والمسيحيين الصهاينة، وهي التي أعمتهم عن مقتضيات حقوق الإنسان التي يشدو بها الغرب في واد، بينما تقترف الصهيونية من الجرائم ما لا يمت إلى الإنسانية بصلة، إن الرغبة في الصدام المتولدة عن هذه العقيدة تحتاج تشريحا أكثر من هذه الإشارة، وإنما أشرنا إليها ليتحفز أهل الخير من كل الحضارات للتواصل ضدا على المؤمنين بالصدام.

ومن جهة أخرى تقوم على أساس استراتيجي، يقضي بأن لابد من القتل الذريع للتمكين لحضارة معينة، وأنه في سبيل ذلك الهدف «المقدس" لا يمكن للقوي أن يتورع عن سفك الدم، وإلا فقد مركزيته وصعدت حضارات أخرى، وهذا مؤدى رؤية صمويل هنتجتون[3] وأنا أوافق من قال بأن كتاب صمويل ليس استشرافا للمستقبل، بقدر ما هو توجيه وخارطة

(1) قعد تنظيم القاعدة مشروعية العنف في كتاب إدارة التوحش لأبي بكر ناجي. ثم دعمه داعش بأخبار آخر الزمان. ينظر مقال: «ما بعد إدارة التوحش. داعش بين العنف المقدس وأساطير نهاية العالم" موقع المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة. https://www.futureuae.com تاريخ الزيارة 7- أبريل 2018م.

(2) إيمان الشيعة بظهور المهدي على حين مت انتشار الدم والظلم، يجعل بعضهم يستبشر بهذه المظاهر الكارثية.

(3) لمزيد من التحليل حول نظرية صدام الحضارات لدى هنتجتون أستاذ العلوم السياسية ومدير مؤسسة جون أولين للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفارد. وأطروحة «نهاية التاريخ" للمفكر الأمريكي من أصل ياباني فرنسيس فوكوياما، في كتاب الإسلام والصراع الحضاري للدكتور أحمد القديدي. ص 56 وما بعدها.

طريق لما يرى أنه الوسيلة الوحيدة لتحافظ الولايات المتحدة على قوتها ومركزيتها[1]. إن الأحداث الدامية التي تشهدها المنطقة الإسلامية، والتي أرخت بظلالها على الآمنين في الغرب، هي مجرد تعبير عن النية التدميرية لهذه الأطراف، ولهذا فإن الأغلبية من سكان هذه المناطق لا يفهمون الداعي إلى قيام حروب مدمرة في مناطقهم، بينما هم يتبادلون علاقات جيدة مع إخوانهم من كل الحضارات، الحق أن هناك من توجههم عقائد القتل إما لبسط السيطرة، وإما لتحقيق نبوءة، ولا يتورع كل فريق لاستعمال سلوك الطرف الآخر لتبرير سلوكه، إنهم يتعاونون على تطبيق نظرياتهم بطريقة غير مباشرة، على حساب حياةوأمن وسلامة الأغلبية الصامتة التي لا تريد سوى العيش بسلام.

2 - الإنسان جسما:

يعتبر الإنسان باعتباره جسدا إحدى أهم النقط الخلافية الموضوعية أحيانا، وذات طبيعة اختزالية أحيانا أخرى، وتظهر راهنية الجسد أساسا عندما يتعلق الموضوع بالمرأة، والقضية الجنسية عموما، ولا يهمنا في موضوع حوار الحضارات تناول الحرية الجنسية، وإن كانت الحرية في حقيقتها «تعني الوعي بما هو إرادة، وللدقة إنه وعي الإرادة والإرادة الواعية في آن..الحرية هي القدرة على المفاضلة بين القيم"[2]لكننا لن نتناولها هنا بمدى مطابقتها أو معارضتها للدين، احتراما للقواعد المشتركة بين أطراف الحوار. ولكن يمكننا كشف أوجه الضرورة - الداعية إلى حوار الحضارات- في التعامل مع الجسد انطلاقا من مرتكز الكرامة الذي لا ينبغي أن نختلف حوله، ما يهمنا إذا هو الحفاظ على جسد الإنسان، وصون حقه في الحركة والغذاء، وضد أي نوع من أنواع الاستغلال، فيكون موضوع الحوار حول هذه الثلاثة: الحركة والغذاء وعدم الاستغلال. فما هي الضرورة الداعية إلى حوار الحضارات فيموضوع الجسد الإنساني في واقعنا الحاضر؟

أ- ضرورة الأمن الغذائي:

(1) الإسلام والحداثة عبد السلام ياسين، يقول المؤلف رحمه الله: «فالمصطلح الأمريكي (النبوءة ذاتية التحقيق) (المتحققة ذاتيا) يرسم ملامح البناء الممنهج لأطروحة الصدام: أتنبأ بالحدث ثم أراوغ وأجتهد لكي يتحقق كما تنبأت به فينخدع الجمهور" ص: 42.

(2) مقالة في الحرية عزمي بشارة ص7. مرجع سابق.

تنص النصوص الدينية، والقانونية، على وجوب أن يحصل الإنسان على كفايته الغذائية، ليس بما يكفل حياته وحسب، ولكن أيضا بما يكفل صحة جسمه من أمراض التغذية، ولو فرض أن إحدى القارات لا تنتج شيئا يصلح لمعيشة الناس، فإن الضمير الحضاري يفرض على باقي القارات أن تتداعى لينال سكان تلك القارات الحدود الدنيا للغذاء السليم، فكيف والواقع أن القارات الغنية بالموارد الغذائية التي يحتاجها العالم، هي أكثر عرضة للفقر وسوء التغذية، إن مشاهد الأطفال الذين يسلمون الروح أما الكاميرات، والمرضى بأمراض الكوليرا وغيرها، بسبب سوء التغذية تفرض على كل الحضارات أن تترك الخلافات جانبا، وتتداعى لإنقاذ الجنس الإنساني، من مستنقع الفقر والحرمان، والأمراض، وإذا كان التاريخ يحفظ لكل حضارة انجازاتها الإنسانية، فإنه أيضا لن يغفل عنإخفاقاتها في حفظ كرامة الإنسان، وسيذكر أن أغنياء الشمال ترفوا وأسرفوا في لذات الجسد على حساب الأمن الغذائيلفقراء الجنوب، لنكن متسامحين مع الداعين إلى حرية استغلال الجسد وإشاعة تلك المتعة بدون حدود ولا قيود، لكن الجوع والمرض الذي ينخر أجسادا أخرى في هذه الأرض يفرض على الضمير الحضاري أن يستمتع الإنسان بقصد، وأن لا يغرق في رغبات جسمه الفائضة، والمتطرفة الشاذة، في غفلة عمن يؤرقه الحد الأدنى للقوت.

ب- ضرورة الحركة:

الحركة - باعتبارها إحدى تجليات الحرية المرتبطة بالتحكم في الجسد- من أهم مقومات وجود الإنسان، فالحضارة تبنى بواسطة سعي الإنسان، وتقلبه في البلاد، وإذا كان الجدل حول الدولة الوطنية قد آل إلى مجموعة قوانين استقرت على حرية الإنسان في حركته داخل الحيز القانوني، حفاظا على الأمن العام، وحرية الآخرين، فاستقرت الحدود الجغرافية التي تحد من حركة الإنسان، وشيدت السجون لسلب هذا الحق في حدود القانون، فإن هناك معاناة إنسانية تتعلق بهذا الحق ستكون ضمن أجندات الحوار بين الحضارات، وهذه المعاناة لا تتخفف إلا إذا تم تخفيف حدة القيود على الحركة، ليؤخذ في الحسبان حاجة الإنسان إلى التعليم الذي لا يجده في بلده، وحاجته إلى اللجوء السياسي، وإلى التطبيب المناسب، وحق السياحة لأغراض مشروعة.كما أن قيمة العدل لا ينبغي أن تحجزها حدود، حتى لا تتحول بعض الأوطان إلى سجن كبير يقبع فيه الناس مسلوبي الإرادة، والفعل الحضاري

المؤثر. إن سلب أدوات التأثير والفعل الواعي يعادل –أو يفوق- سجن جسد الإنسان في فضاء محدود.

ج- عدم الاستغلال:

نظريا لا يمكننا الحديث عن الاستغلال في كل ما يأتيه الإنسان راضيا، فعنصر الرضى ينفي الاستغلال السلبي، لكن –عمليا- هل الرضا يعني فقط الموافقة بدون تهديد بالقتل وما يشبهه؟ هكذا يعرف الإكراه في القانون والفقه الإسلامي، غير أن وسائل الإكراه –في نظري- تطورت مع الطفرة المعاصرة، ليصبح الإنسان مع الترسانة القيمية الاستهلاكية مجبرا بقوة الإشهار، والعرض المغري لآخر منتوجات الأزياء، والمأكولات، والمركوبات، على مسايرة الركب، وبين أقساط البيت والسيارة، وتكاليف الأسفار، ولوازم الزينة، فقد الإنسان أي فرصة للاختيار، بل فقد القدرة على رؤية أي خيار آخر غير رؤية النموذج الاستهلاكي، الطاغي بكل ألوال الطغيان. «وحتى ابن هذه الطبقة (الطبقة المتوسطة) الذي يقدم في النظام الديمقراطي أنموذجا للإنسان الحر، يخضع لأنظمة الرقابة الحديثة،الفائقة التطور، التي تستطيع أن تتغلغل في خصوصياته الدقيقة، كما يخضع للتنافس الاستهلاكي مع أقرانه، وتستعبده متطلبات مستوى المعيشة، ودفع الأقساط لسداد قروض البيت والسيارة، وتقيده متطلبات العائلة والأبناء والتقليعات في كل خطوة في حياته، ويسترقه الامتثال لضغط الثقافة السائدة، وتقليد الآخرين، وأوضاع العمل، ونزعات مديره التسلطية، لتفريغ مشكلاته النفسية فيه. كل هذا في مجتمع جماهيري يجري توجيهه باستمرار ليتصرف مثل القطيع"[1]. هذا بالأجمال دون التفصيل في الأثمان التي يقدمها الإنسان من عرضه وراحته ورأيه من أجل مواكبة التيار الجارف هذا، إن الحوار بين الحضارات إذا لم يحركه الإنسان المستغل بما يتجاوز طبيعته الإنسانية، فلن يكون حوارا حضاريا بالأساس.

3- الإنسان عقلا:

سيتوافق أطراف الحوار بين الحضارات على أن العقل هو العنصر المميز للإنسان، فهو - بلغة الدين- مناط التكليف، وبلغة العلم وعاء ومصدر المعرفة في آن واحد، وهذا يتطلب

(1) مقالة في الحرية عزمي بشارة ص23.

من المهتمين بالإنسان أن يضمنوا للإنسان - باعتباره عاقلا- ما يحفظ حقه في إعمال عقله، كما يملي عليه عقله، في حدود الحرية التي لا تتناول حرية الآخرين، ويمكننا الحديث عن مستويين للمعرفة العقلية يجب التقيد بحفظهما: مستوى كسب المعرفة، ومستوى إنتاج المعرفة:

أ- مستوى كسب المعرفة:

لن ندخل في جدل المعرفة الكسبية والفطرية لدى الإنسان، احتراما للحجم المطلوب لهذا الكتاب، ولكننا نعرض إشكالين يعيقان كسب المعرفة العقلية في واقعنا المعاصر: الأول: ما نسميه طغيان الرأي الواحد، والثاني: حجب المعلومة.

- المشكل الأول: الرأي الواحد:

على الرغم من أن تعدد الآراء أصبح لازمة الثقافة الحديثة، غير أن المتابع لتكوين العقل الإنساني المعاصر، يلاحظ طغيان رأي واحد وغياب أثر الآراء الأخرى، ولا شك أن عقلا تغذى على رأي واحد، سيكون عنيفا في التعامل مع أي رأي يصدم ما لديه، وهذا ما نلاحظه في المجتمعات الإسلامية والغربية على السواء، فتجد أمورا هي مجرد استنتاجات بعض الاتجاهات الفكرية، وقد يكون الزمان والعلم قد تجاوزها بالفعل، لكن الدهماء من الذين تغذت عقولهم على رأي واحد، لا زالت تلك الأفكار هي مقياس المعرفة عندهم، وقد تكون تلك الآراء –الأحادية من جهة، والمتجاوزة من جهة أخرى- معيارا لقبول شخص ورفضه، وإمتاعه بحقوقه الطبيعية وحرمانه.

فأما في واقع المسلمين –والإنصاف يستدعي منا البدء بأنفسنا- فقد أهلكت العقول المتغذية على آراء أحادية الحرث والنسل، وخان بعض المشايخ تعليمات الرحمة والتؤدة والتماس الأعذار والتبين التي تزخر بها الشريعة الإسلامية، التي ينبغي أن تعلم للطالب قبل دفعه لاستصدار أو إصدار حكم أو فتوى، واحتاج بعض الشباب إلى كثير من الصراع العقيم، وسنوات من السجن المظلم، ليقتنع بضرورة مراجعة محصوله العقلي في ضوء الآراء المتعددة، ويخرج من سجن أفكاره الذي قطع معرفته بالعالم، قبل أن يلج مؤسسة

السجن التي قطعت صلة جسمه بالعالم. هذا إذا سلمت روحه من اللهيب الذي قد يحرق به غيره في عملية انتحارية، أو مواجهة عبثية مع قوى الأمن والجيش.

وأما على المستوى الغربي فقد خان كثير من المثقفين مقتضيات حقوق الإنسان، ومبدأ التعدد الفكري الذي لا توجد تعددية سياسية حقيقية في غيابها، وبدل السعي إلى التعرف على الحضارات الأخرى، فقد حفلت الوسائل الإعلامية الغربية بعرض رأي واحد في أمور تهم غير المتكلمين فيها، وأصبح المواطن الغربي عرضة للرأي الواحد، المستفرد بالمشاهد، بعيدا عن أي رأي آخر قد يعري منظومة ذلك الرأي الواحد، ومع الإقبال الكثيف للمواطنين في الغرب على التعرف على الإسلام ومعانقته، بمحض إرادتهم، فكثير من المثقفين لا يزالون يستخفون بتلك العقول التي قطعت رحلة طويلة وشاقة من المتاهات المعرفية العقلية والنظريات الفسلفية قبل أن ترسو على بر الإسلام، حين يعتبرون الإسلام مجرد دعوة للإرهاب، ومعانقيه همجاورعاعا، متعطشين للدم. ناهيك عن مقتضيات الحداثة – بمفهومها الغربي- في اللباس، والعلاقات بين الجنسين، التي تجعل الرؤية الغربية معيارا للحق والباطل، ويقاس مدى تحضرك وتخلفك بمدى قربك وبعدك من النمط الحداثي في الثقافة والسياسة والعلاقات الاجتماعية، دون أن يفسح لك لتقارن بين النظرتين على الأقل، احتراما للملايين من المسلمين حول العالم وهم على كل حال عقلاء لا ينبغي اتهام عقولهم جميعا.

إن تلك العقلية المنغلقة على نفسها عندنا وعندهم، هي التي تدفع بنا جميعا إلى الصدام، لأنه –وبكل بساطة- من جهل شيئا عاداه. ومن الأمثال السائرة عند المغاربة: «اللي ما عرفك خسرك" (من يجهلك يضيع فرصة الاستفادة منك).

- المشكل الثاني: حجب المعلومة:

يعتبر حق الحصول على المعلومة من أبرز الحقوق التي يدندن حولها النقاش الثقافي المعاصر، ولا شك أن تكون العقل يحتاج لمعلومات كاملة في كل الميادين التي يطرقها، فحجب المعلومة تعني حرمان العقل من المدد الذي تكون به حياته وتنميته، بل يمكننا أن نذهب أكثر من ذلك بالقول: إن حرمان العقل من التعلم أصلا، قد يكون أهون من حجب بعض المعلومات عنه، ذلك أن العقل المتكون من معلومات ناقصة بتراء، عقل مشوه، يعمل

بمقتضى تصور غير مكتمل، فنتائجه قد تكون مصدر ضرر بدل أن تكون مصدر نفع. إنه يشبه –ما يسميه العلماء المسلمون- الجهل المركب، حيث يتصدى العقل المتعلم بصفته العلمية لموضوع لا يدري أنه يفتقد فيه المعلومات الأساسية. وقد استفحل غياب المعلومات الضرورية لدى كثير من العقول المشتغلة بحقول معرفية متنوعة، وقد اشتكى بعض أخصائي التغذية بالمغرب غياب مواد التغذية بكليات الطب، ما يعني جهل الطبيب المعالج بتاريخ العلة التي يعالجها في جسم المريض، أما القرارات السياسية التي تتخذ في حق شعوب كاملة[1] دون أن تتمكن الصحافة الحرة من الاطلاع عليها، وإبلاغها للمعنيين بها، فأمر يشعر بخطر جسيم على وعي ومستقبل الشعوب، وعموما فلابد أن يأخذ النقاش الحضاري حظا كاملا للاتفاق على حدود معقولة بين الأمن القومي لأي دولة، وبين حق الجمهور في الحصول على المعلومة، في مجالات السياسة والطب والدفاع، بما يكفل اشتغال العقل بنقاش فكري ينضج القرارات المناسبة، في السياسات العامة.

ب- مستوى إنتاج المعرفة:

إذا كان التفكير عند بعض الفلاسفة من تجليات الوجود، فإن التفكير لن يأخذ أبعادا تراكمية منتجة لصالح البشرية، إذا لم يتم التعبير عنه، ذلك التعبير الذي يتأرجح بين الخطإ والصواب، وبين الجدة والاستمرار، وبين الموضوعية والذاتية، نعم يجب أن يفسح المجال للإنسان لتقويم ما وجده من معارف، ثم يبرهن عن رأيه في الرفض والإقرار، في النقض والدعم، لقد انقطع الوحي الذي كان المصدر القطعي للمعرفة، وأصبح لزاما على البشرية إسلاس قيد العقول، لإنتاج أكبر قدر ممكن من الإنتاج المعرفي، وسيكون من مهمة الآخرين نخل ذلك الإنتاج، كما ينخل غبار الذهب لتخليص الذهب الخالص من ركام التنقيب والحفريات العميقة. ولكن هل يوجد ذهب دون ركام وتنقيب وحفريات؟ ويمكننا الوقوف عند إشكالين يتعلقان بالحجر على العقل الإنساني، أحدهما متولد عن الآخر، هما: الرأي الديني ومشكل الأقليات، والثاني: مشكل العنف المتولد عن الكبت.

(1) ينظر على سبيل المثال: تقرير وضعه مجلس الأمن القومي الأمريكي، اعتبر فيه كثرة السكان وتزايد النمو الديموغرافي بالعالم الثالث، يشكل خطرا على الأمن القومي الأمريكي، سياسيا واستراتيجيا واقتصاديا، وتم نشر الوثيقة التي ترمي إلى ضبط السكان بالعالم باسم: NSSM 200 وقد زكى هذه الدعوة ربطها بالدعم الذي يقدمه صندوق النقد الدولي، للدول الراغبة في الاقتراض. موقع الجزيرة نت www.aljazeera.netتاريخ الزيارة 2017/11/20م.

- الرأي الديني ومشكل الأقليات:

ليست الأقلية والأكثرية معيارا للحق والباطل، وإنما يلجأ لفرز الأكثرية من الأقلية لحسم النزاع، والرأي الذي تتبناه الأقلية اليوم قد يكون رأي الأكثرية غدا، والعقل البشري ينبغي أن يبحث عن الحق لا عن أهل الحق، فمن عرف الحق عرف أهله، كما ورد عن بعض السلف، وفي تراثنا الإسلامي ما يزكي هذه الفلسفة التي ينبذها واقعنا اليوم، المتسم بالإقصاء، وفولاذية الآراء، فالقرآن الكريم لم يربط الحق بأكثرية أصحابه، ولا بأقليتهم، ففي كثير من الآيات يقرر القرآن أن أكثر الناس لا يفقهون، ولا يعلمون، ولا يشكرون.. كما أن أنبياء مثل نوح شيخ الأنبياء والمرسلين، الذي قضى قرونا في دعوة قومه للحق ليلا ونهارا جهارا وإسرارا، «مَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ 40 «[1]. معنى هذا أن بعض الأنبياء مع أتباعهم عاشوا أقلية في عصورهم، وبين أقوامهم. بينما نجد نبيا آخر كيونس أسلم جميع قومه، «مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ147"[2]. كما دخل العرب قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم «فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا2"[3].لقد كان بعض الأنبياء وأتباع الحق وحدانا في قومهم، ولم يفقدهم ذلك جدارتهم بالحق.

لقد كانت هذه المقدمة ضرورية لبيان الأساس الفلسفي الذي يضبط قضية الأقليات والأكثريات، ولإعداد النفوس لقبول رأي الأقلية باعتباره حقا من حقوق الإنسان، وباعتباره عامل ثراء الآراء، وإذا كان إحقاق الحق مرتبطا بالطرف الأضعف في كل قضية، فإن الأقلية تطلب حقها في أمرين: الأول: حق مناقشة الأكثرية، ومجادلتها، مهما ظهر للجمهور أن ذلك الرأي مجاف للعقل والمنطق، ولا ينبغي أن يحل الاستهزاء والإقصاء، محل الاحترام والإنصات مهما كانت الدواعي. الثاني: حق معانقة الآراء وتغييرها، وتلفيقها، بأي شكل لا يهدد السلامة الجسدية والقيمية للمجتمع. وسيستل هذا الموضوع حبل الأفكار المتصل بالأقليات المسلمة في البلدان غير الإسلامية، والأقليات غير المسلمة في البلدان الإسلامية، كما سيسحب إلى الواجهة مشكل الردة، وتغيير الدين، ولن يستقيم حوار الحضارات إذا كانت نتائجه ومخرجاته محددة سلفا، كما أن الفكرة التي تفشل في إقناع الناس يتحمل

(1) سورة هود الآية 40.

(2) سورة الصافات الآية: 147.

(3) سورة النصر الآية 2.

صاحبها تبعات فشلها، بدل أن يحمل الناس تلك التبعات، إن هذا الموضوع في حضارتنا الإسلامية يطرح علينا سؤال الفتوحات الإسلامية المطلوبة لهذا العصر، والسلاح المجدي فيها، وتقصيد العمل، باعتباره دعوة العباد إلى معرفة - قبل عبادة- رب العباد، « بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ"[1]ثم بعد ذلك «فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ «[2]. إن بعض الدعاة يسيء للدعوة الإسلامية، ويسيء لمذهبه حين يحذر من الترخيص لأي طائفة دينية، أو توجه فكري بالعمل في إطار القانون ظنا منه أن ذلك سيحميه، من طوفان الأفكار الذي لا يتوقف عند حدود، لأنه بهذا التحذير يبرهن عن عجزه عن منازلة الخصم في أرض سوية، بأسلحة متكافئة. لا يستحيي بعضهم أن يؤلب السلطة الحاكمة على مخالفيه ثم هو يدعي أن ما معه نور الله « وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ 8"[3]. لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم واحدا، ثم كانت دعوته في مكة دعوة أقلية، وبقيت دعوته بعد الهجرة دعوة أقلية في الجزيرة العربية، ولو لم يكن يقبل حجاج الناس، ويصرع براهينهم ببراهين الوحي لما توسعت دعوته، إنه حين يتخلف الفكر والبرهان يتقدم الجهل والعي. ثم ما يغني عن ذي عي ألا يعترف بحجة خصمه والحق يعلو ولا يعلى عليه.

لكن ضمان حقوق الأقلية الدينية والفكرية في المجتمع لا تتحول إلى صخرة صماء تتكسر عندها حقوق الأكثرية، إن كثيرا من خدع الحروب الحضارية، تعمل على دعم الأقليات، لإيجاد فرجة للتدخل في شؤون الآخرين، بل يتم استنبات الأقليات في مجتمعات متوحدة، وكأن وجود الأقليات مطلب، وليس معطى موضوعيا، نتعامل معه بحكم الواقع الذي لا يرتفع. ويعظم الرزء حين يكون رأي الأغلبية في المعارضة، ويصبح خطاب الأقلية هو المعبر عن «روح المجتمع" والمقرر في خيارات البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ومن الوضوح في حوار الحضارات أن يستمع أطراف الحوار للقوى الحية في المجتمع، وأن يتم التحاور بين الممثلين الحقيقيين للمجتمع، لا مع المغتصبين لرأي الجماعة، المتسلطين بقوة المدفع، والمال والسلطة والإعلام. ذلك ليكون الحوار بين الحضارات موضوعيا واستراتيجيا.

- مشكل العنف المكبوت:

(1) سورة النحل الآية125.

(2) سورة الكهف الآية 29.

(3) سورة التوبة الآية 32.

لا توجد معالجة دون تشريح، ولا يوجد جواب دون سماع وفهم سؤال، ولا يصح الحكم إذا لم يصح التصور، والحكم فرع عن تصوره، هذه خلفية منطقية أخلاقية، تضعنا أمام كارثية كبت الآراء، وقد أسفر واقع الكبت الفكري عن دروس قاسية في كيفية التعامل مع الرأي: نكتفي بتجليين: الأول: سقوط الأنظمة العربية الأكثر كبتا للأفكار. الثاني: اختلاف نصيب البلدان من أفكار الإرهاب بحسب تحرير وكبت الأفكار. وبالإجمال فالواقع السياسي للدول يجلي أن لا وجود لدولة فيها حريات غير محدودة، فجميع الدول تحجز الرأي بقدر معين، ويقرب أن تنال كل دولة نصيبها من الاحتجاج السياسي، ومن لوثة الأفكار الإرهابية المدمرة، لكن نصيب كل دولة يكون بحسب اعتبارها لوجود فكر مخالف لتوجه النظام، ومقدار الإنصات لذلك الفكر، والتعرف عليه، وتمييز جوانبه الدينية والسياسية والاجتماعية التي –قد تكون- التبست على صاحبها، والدول التي آل حراكها السياسي إلى نار فوضى عارمة، تحرق الجميع، هي تلك التي تعاملت بدون أن تضع في حسبانها أصالة الرأي وموضوعيته وأسبابه، وبالجملة قمعت رأيا لم تعرفه، ولم تجب عن سؤاله، فضلا عن تلبية حاجته.والفكرة يمكن أن تموت من تلقاء نفسها، لكن يستحيل قتلها واجتثاثها، بل محاولة قتلها دون مبرر موضوعي يعطيها مددا تقوى به وتتوسع، ووفاة الأفكار بتعريتها وقطع الإمداد عنها وتقديم بديل عنها، وهذا يحتاج إلى معرفة الفكرة أولا، هذه المعرفة التي توجب علينا أن ندافع عن ألذ خصومنا لينالوا حقهم في الوجود القانوني، إن لم يكن استجابة لضميرنا الحضاري، فليكن لوضع الفكرة المخالفة تحت أشعة الضوء الكاشف، ليمكننا تسديد الضربة. هي رسالة إذا إلى طرفين: الأول: المتغلبون حتى لا تأخذهم العزة بالغلبة فيوقدون نار الأحقاد، وينشرون بالإقصاء كل الأفكار التي يرغبون في دفنها، والثاني: المستضعفون ليطمئنوا أن سنة الله في الخلق أن الحق ماض، لا يتوقف، إذا حوصر اشتد وإذا ترك امتد.

4 - الإنسان روحا:

هل يمكن للإنسان أن يعيش سويا بدون مثل عليا؟ وكما يقول الصوفية هل يوجد إلحاد بمعنى عدم الاعتراف بوجود إله مطلقا؟ إذا كان لكل حضارة كبوتها فكبوة الحضارة الغربية المعاصرة، والمنسحبة على كثير من الحضارات الأخرى، هو محاولتها عزل الإنسان عن خالقه، وإيهامه بأنه يسكن في هذا الوجود لوحده ! بيت مهيأ لحياة الإنسان، يأتيه مكرها ويرحل عنه مكرها، في مواعيد محددة، كل متطلباته منسجمة بشكل لا تستطيعأي قوة

تنظيمية أن تنال معشار ذلك الترتيب.. كل ذلك عبث؟! غلطة هذه الحضارة التي أسرفت في حق أجيال كاملة، هي أنها أجبرت الإنسان على صم أذنه عن نداء الفطرة والأزل، والإغراق في أتون الشهوة، وأوحال الرذيلة، ليتناسى جلجلة ذلك الصوت، صوت داخلي لا مفر من مواجهته إلا بإجابته. ومن المفارقات العجيبة في الإنسان أن لازمة الجهل لا تفارقه مهما تقدم به العلم، ومضت أمامه من أمثال، إن الإعراض والمكابرة، التي تناولها القرآن الكريم والتي عابها على الأمم قبلنا لا زالت تتكرر بنفس الوتيرة، وأسوأ صور الجهل: أن يتخذ الناس «أندادا من دون الله، يحبونهم كحب الله"[1].فبينما يعرضون عن الله اعتدادا بما عندهم من علم، أو مال، أو سلطان، إذا بهم يخضعون لبعض خلقه، يتخذون منهم المعبود والنبي ويحيطونهم بهالات التقديس، بعبارات مختلقة، مراوغةتحاول كتم الحاجة الإنسانية للقوة الكبرى والحقيقة المطلقة، لقد أصبح الفيلسوف الذي أعلن موت الإله إلها من دون الله، وأصبح ماركس ولينين رموز الشيوعية، آلهة وأنبياء العمال الموتورين، في أرواحهم من حيث لا يشعرون، لقد أصبح كل عبد مستعدا ليموت في سبيل تعاليم معبوده ومثاله الأعلى، فما الذي قدمته الفلسفة الحديثة غير استبدال معبود بمعبود، ومقدس سماوي بمقدس أرضي، هل تجاوزت هذه الفلسفة تصورات الجاهلية العربية –مثلا- قبل الإسلام، التي لا تعترف بالله بالصفات المطلقة، بينما تتخذ إلها بغير صفة أصلا، لقد كان في تخليد القرآن لذلك النقاش الفلسفي مع العرب في السور المكية، عبرة لأولي الألباب في عصرنا. إنها الأصنام نفسها، والجهل نفسه، والمكابرة والجحود كما هما.

مهما يكن موقف الإنسان من وجود الله تعالى، فإن حوار الحضارات يجب أن يأخذ مسألة الوجود الإنساني بعين الاعتبار في جانبين: الأول: جدية الوجود. والثاني: إتاحة التجربة الروحية لكل إنسان على حدة.

أ- جدية الوجود:

يمكن للإنسان أن يبني تصورا للوجود، وخالقه ومآله بناء على تشريحه لنفسه، وظروف تكوينه، وتشكل شخصيته، وستختلف نتائج البحث عن حقيقة الوجود، لكن معقولية الأفعال الإنسانية في العادة، كما يقول الفقهاء تأبى أن تتعامل مع ظواهر جدية

(1) سورة البقرة الآية 165.

كلها، بتعامل سخيف، وتجاهل[1]. ويمكننا التنبيه إلى جدية الوجود التي يغفل عنها الإنسان عادة من خلال، محددين موضوعيين: الأول الإيجاد من عدم. والثاني: الإعدام من وجود.

- الإيجاد من عدم:

تعتمد فلسفة التجريب والواقعية على معايشة اللحظة، وترك الاهتمام بمقدمات اللحظة، فيما يتعلق بالوضعية النفسية للإنسان، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لصرف الإنسان لمعاقرة اللذة المادية، دون التفكير في سياق الكينونة مع اللذة، وسوابقها ولواحقها، ولا يخفى على ذي عقل أن الحكم على أي شيء بقطعه عن سياقه يضر بالحقيقة التي هي مطلب كل عاقل، فاهتمام الإنسان بالتاريخ اعتبار منه لسياق الأحداث وبروز وخفوت الحضارات، والطبيب النفسي لا يعالج مريضه قبل معرفة سياق مرضه سوابقه ولواحقه، وطبيب الأعضاء يسأل مريضه عن نظام معيشته في الغذاء والحركة والأمراض الوراثية، كل هذه ثوابت علمية لا يجادل الإنسان في ضرورتها، حتى إذا جاء الإنسان لأخطر موضوع وهو موضوع الإنسان، ومبدأ وجوده، فإذا به يحرم على نفسه مجرد السؤال عن الماضي، ماذا كان منه وكيف كان؟ بل يقف العلم عند مفاصل دقيقة في المرحلة الجنينية للإنسان، فلا يهتم إلا بأمر خروج الجنين حيا وإعداده لينسى هذه المرحلة التي لا يحمل لها العلم الحديث جوابا، ألا يفرض العلم أن يستذكر الإنسان تلك المرحلة التي لم يكن الطبيب ولا الأم الحامل فيها سوى شهود على حياة منتظمة لا يد لهم فيها؟ نمو مطرد، وغذاء متوازن، وتنفس طبيعي، في أضيق مساحة في الكون !هل يجب على الإنسان ألا يسأل عن رحلته إلى البلوغ والإحساس بالرغبة في الجنس، والمال، والشهرة..؟ ! ما الذي يخيف الإنسان المعاصر الغارق في اللذة من إثارة هذه الأسئلة، غير خوفه من الجواب، إنها طبيعة الإنسان في كراهية التعرض لسؤال لا يملك جوابه. لكن أين بعض إلحاح الإنسان المعاصر على كل المعارف الممكنة،من معرفة سر وجوده بعد العدم؟ إذا استسلمنا لما نراه تشويشا على متعة الجسد بأسئلة الروح، فسنكون قد غيبنا الإنسان باعتباره روحا. فلابد من تحميل الإنسان بعض الألم وتعويده على ألم الحقيقة التي هي - على كل حال- لا تقارن براحة الوهم.

- الإعدام من وجود:

(1) ومن التجاهل والسخافة أن تحذف التربية الدينية من المقررات الدراسية، في السنوات الأولى على الأقل، ويحكم على الطفل بالإلحاد مسبقا.

تنتهي عظمة الإنسان، وعنفوانه، وكشوفاته، وتكبره على الخالق والمخلوق، بعد فترة قصيرة جدا، بالنظر إلى رؤية الإنسان المتضخمة لقيمته المادية في الوجود، ويبرهن الإنسان المعاصر –كما كان يفعل البدائي أيضا- عن جهله بالحقيقة الماثلة، حين يأخذ رفيقه في درب العلم والتجريب والمتعة ونكران الغيب، جثة هامدة، لا حراك بها، ليغيبه تحت أنقاض التراب، أو يحرقه أو يغرقه.. لا فرق، يسلمه للغيب الذي ينكره، ويعود هو لشهوده مصرا على إنكار الغيب الذي أطل عليه من على شفير قبر صديقه الراحل ! وقد يبرهن عن جهل أكثر –وهو يحاول القطيعة مع السماء- فيعمد إلى تحنيط جثة الزعيم الملهم، الملقاة بين يدي الحرس المأجور، والزوار المشدوهين لمنظر الرسم الذي ذهب عنه المضمون، إلى مكان لا يكاد يسأل عنه أحد من هؤلاء المارة الذين يقتلون الوقت في جولات سياحية، هربا من لحظة صفاء تعود إليهم فيها نوبة الروح، تقض مضاجعهم، «وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ 105"[1]. تلاشت شجاعة الإنسان المعاصر، وواقعيته ومنطقه، أمام معطى الموت، معطى موضوعي لا يملك الإنسان تفاديه، والاحتراز منه، ولم تفلح الثورات العلمية في إنتاج عقاقير الحياة الدائمة، ما الفائدة إذا من تجاهل الموت، وتعليم الأجيال كيف يتجاهلونه وهو لن يتجاهلنا؟ لقاء لابد منه، ألا يقتضي العقل السؤال عن طبيعة ذلك اللقاء؟ برنامجه؟ مخرجاته المحتملة؟ الإعداد الممكن له؟ جدية بهذا المستوى الفاصل نواجهها بدس وجوهنا في التراب؟ ألا يمكن أن نختلف عن هذه النماذج التي حكاها القرآن قديما:

• « إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 4 أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ 5 »[2].

• وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا7"[3]

(1) سورة يوسف الآية: 105.

(2) سورة هود الآيتان: -4 5.

(3) سورة نوح الآية:7.

• كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ 3 بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ 4 وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ5"[1].

ألا يراودنا ما راود أبا العتاهية حين قال:

أنلهوا وأيامنا تذهب ونلعب والموت لا يلعب؟!

يمكن للعقلانية المتحضرة، أن تركل هذه العبارات الوعظية، عن طريق المتعة الجسدية التي يراد لها أن تكون هم الإنسان الأول في الوجود، لكنها –حتما ومهما استجمعت من قوة- لا تستطيع أن تزيح معطى الموت في نهاية مطافها، وذاك هو صلب الموضوع.

ب- التجربة الروحية الذاتية:

لا يوجد علم روحي، ولكن توجد تجربة روحية، والتوجيهات الدينية، لا تحمل الجواب لإنسان مذهول عن نفسه، لا يعطي لخطاب الوحي بعدا ذاتيا، ينقله من خطاب مجرد خارجي، إلى واقع روحي داخلي، والقرآن الكريم يكرر كثيرا أن آياته لا ينتفع بها إلا «مَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ 37"[2]. لنر هذه النماذج:

• « وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ 98 «[3]

• « وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ 126"[4]

• « إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ 24"[5]

(1) سورة فصلت الآيات: -3 -4 5.
(2) سورة ق: الآية: 37.
(3) سورة الأنعام الآية: 98.
(4) سورة الأنعام الآية: 126.
(5) سورة يونس الآية: 24.

• «وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ 4"[1]

• «وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ [2]23

• « إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ 190"[3]

تجربة روحية عناصرها موجودة في كل ذات، متحضرة أو بدائية، متعلمة أو أمية، لا فرق، إلا بقدر استعمال القوى الذاتية: العقل، والفقه، والذكر، والتفكر، والسمع، واللب.

فيكون اعتراض من يعترض على الوحي إذا، استنتاجا شخصيا عقليا خاليا من تجربة روحية، وحتى إذا كان استنتاجه نابعا من تجربة روحية فعلا فلا يجب الاقتصار على تلك التجربة، ولا يعفى آحاد الناس من خوض تجربة خاصة بهم، لأن"ما أقرره بواسطة التشريح النقدي لأعمال الوجود الواعي، في شكل من العناصر والوظائف، والعقد النفسية إنما هو نفسي أنا.. إننا نعالج هنا شيئا ما لا يطاله أبدا البحث العلمي، وليس عبثا كون كل لغة تعرض علامات مربكة معقدة، معجزة ترمز بها إلى ما هو روحي"[4]لأن التجربة الروحية ليست تخصصا علميا دقيقا بعبارة العلوم، إنها عالم يسكنه كل الناس، ويتناولون خصائصه بكل اللغات، والأساليب والمستويات، ولكن لا يفهم إلا بمعايشة تجربة خاصة، وهو ما يسمى عند الصوفية بالذوق، وكبار العارفين بالأحوال الروحية كالغزالي وابن القيم يؤكدون حقيقة مفادها: أن العبارة المجردة لا تستوعب أحوال النفس، وأن تلك الحقيقة تحتاج إلى ذوق، وشاع عندهم: «نحن أهل إشارة وغيرنا أهل عبارة". وبعض علماء التربية قالوا إن الذين قتلوا بسبب كلامهم الروحي –كالحلاج- أخطأوا حين تحدثوا في مقام لا ينبغي التعبير عنه، لأن التعبير يضيق به، أي أن اللغة إن تناولت الموضوع فستتناوله بالإشارة، وحينها فالإشارة

(1) سورة الرعد الآية: 4.

(2) سورة الروم الآية:23.

(3) سورة آل عمران الآية:190.

(4) تدهور الحضارة الغربية أسولد أشبنغلر ترجمة أحد الشيباني دار مكتبة الحياة بيروت لبنان الجزء الأول ص522. ينظر أيضا فلسفة الحضارة ومعنية المجتمع والعلائقية الخطاب العربي في التطهر الحضاري والمعرفة والفعل. علي زيغور ص8.

لا تنفع إلا من يعيش تجربته الروحية الخاصة،إن عالم الروح مؤشر على المساواة الأزلية بين الناس، وعلماء المسلمين حين يطلبون الكمال في علوم الشرع كلها، لا يرجون من معرفتهم الروحية إلا ما تعرفه العجائز التي لم تشوش تفريعات العلوم على أدواتهن الروحية، فلا يجد أحدهم حرجا في أن يسأل الله «إيمانا كإيمان العجائز".

بعبارة أخرى تجربة الإيمان شخصية، لا يصح القهر في فصلها ووصلها بأحد، وإذا كان من الطبيعي–نظريا- أن تعترف المنظومة الحقوقية بحق التدين، فإن الواقع يثبت أن الإنسان محروم من هذا الحق، إنه لا يعطى الفرصة الكافية لمعرفة الله تعالى، ولا يعطى الحرية المطلقة في الخضوع أو التمرد، إنهم يحذرون الأطفال مما يؤذي أجسادهم، وعقولهم، ويهدد حياتهم، لكنهم لا يحذرونهم مما يؤذي أرواحهم، لا بل لا يجنبونهم ما يدمر حياتهم الروحية، لقد حسموا في مصير الأطفال حين غيبوا أرواحهم واهتموا بوجودهم، وعقولهم، وجسومهم، فمن السؤول عن معاناة الذين استقصوا مراد العقل والجسم دون أن يتمكنوا من فهم وجودهم؟ بل زادتهم تلك الرغبات التي يقضون أوطارها كاملة، نفورا من الحياة، ورغبة في التخلص منها.

يجب أن تخرج التجربة الروحية من دائرة النقاش العقلاني الأصم، لأنها لا تقع تحت سلطانه، وينبغي أن يأخذ العقل حقه من المعارف الإنسانية بدون غلو، الإنسان ليس مجرد عاقل، بل العقل من أجهزة الإنسان، ولا يصح أن يقع الإنسان تحت سيطرة أحد أتباعه، ولكن يصحب عقله جنبا إلى جنب مع روحه، وجسده، وحياته، هذه إحدى المسلمات التي انتهى إليها أحد المفكرين المغاربة، بعد رحلة شاقة مع الشك، فانتهى إلىاعتبار العقل صديقه لا سيده.[1].

ثانيا: محور الأرض:

الإنسان الحي بروحه وجسمه وعقله لا يستغني عن الطبيعة، والأذى الذي يلحق بالطبيعة يلحق به، والغلاف الجوي للأرض يحصر الإنسانية في مجال واحد، يجلي وحدة المصير ووحدة المصالح، وبالتالي ضرورة الحوار، من أجل الحفاظ على البيت المشترك. يوجد

(1) رواء مكة حسن أوريد ص187.

في تراث نبينا صلى الله عليه وسلم حديث يسمى حديث السفينة، يصف بعمق هذه الوحدة الأزلية: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في سفرنا هذا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا"[1]. سفينة الكوكب الأرضي بسقفها وأرضيتها..والطبيعة اليوم تستغل في علوها وسفلها، في باطن الأرض وظاهرها، والثروات الغنية التي أودعها الله في الطبيعة لتكون مصدر حياة الإنسان، وبقاءه، أصبحت مهددة بالنزاع المبني على الأثرة، والأنانية، والرغبة في السيطرة والتسلط، ومن أجه الاختلال في حياة الناس اليوم أن الحوار حول الضرورات المشتركة بين الناس لا يأخذ من الأهمية القدر الذي يأخذه التنقيب على الثروات، والسيطرة على مصادرها، فيلزم من يهمه الحفاظ على السفينة أن يأخذ على أيدي من يسعون لخرق السفينة.

إن الحوار حول ضرورة المحافظة على الطبيعة، وتدبير الاستفادة منها، يمهد الطريق ليستفيد سكان الأرض من الثروات الذي هي مدخرة من أجلهم، جميعا دون حرمان أحد. وهذا للأسف دليل على أن الحضارات المسيطرة اليوم لا تحمل الكثير من قيم التعايش بقدر ما تحمل من قيم النزاع، والاعتداء والتسلح، ولعل مؤشرات الواقع اليوم تعود بالعالم إلى سباق التسلح، الذي يبذر ثروات الأرض في أوهام مرعبة، تخيل لأصحابها أن الأرض مساحة للنزاع وحسب، وأن البقاء للأقوى ! ولو تبنت كل حضارة مقولة «البقاء للأقوى" بالمفهوم المادي للقوة، فإن حربا مبيدة تحيق بجميع سكان الأرض قريبا، ولكن قيم الحوار بين الحضارات يمكن أن تحمل لأصحاب القرار معان أخرى للقوة، تفتل في حبل اللقاء على المشترك، ليكون القوي هو من يمثل قطب الرحى في جمع الأطراف على الحوار، ويكسب ثقة كل الأطراف، دون أن يتخلف عن مقتضيات القوة المدنية والعسكرية. وقد كانت منظمة دول عدم الانحياز مثلا صالحا، للتحلي بقيم الحياد الايجابي، والفاعلية المؤثرة التي تجعل الحوار وسيلة التواصل، وتفترض لكل معضلة جوابا لا غالب فيه ولا مغلوب.

(1) صحيح البخاري كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه. حديث رقم: 2361.

هل يستحق الإنسان أن يتسم بالتحضر إذا أخفق في إنتاج نظريات لتدبير النزاع بين الدول والحضارات؟ ولجأ إلى مجرد الصراع الذي يصنفه ضمن دائرة المخلوقات البرية المجردة؟ لكن بالمقابل هل يكفي وجود أنظمة فكرية نظرية لتدبير الاختلاف والحال أن أسبابا موضوعية للنزاع والصراع قائمة؟ وإذا كنا لا نشكك في قدرة الإنسان في إبداع الطرق الناجعة لتعايش سكان الأرض واقتسام الثروات بالعدل، والمساواة، أحيانا، وبمقتضيات الإنسانية والقيم الحضارية من جهة أخرى. بل لا نشك في تراكمات هائلة في طرق فض النزاع، والتحكيم الدولي، التي راكمتها جهات خيرة تعبر عن الروح الحضارية التي لا زالينبض بها الضمير الإنساني. فإننا نشك أن تؤتي تلك المحاولات أكلها في فض النزاع، وإحقاق الحدود الدنيا لحق كل شعب وحضارة، ما دامت أسباب النزاع والصدام قائمة، بل لها سدنتها المنتفعون من وجودها واستمرارها، والحوار بين الحضارات يجب أن يتناول –حسب المستويات المتاحة- أسباب النزاع قبل الحديث عن الحلول الممكنة، ومخرجات الصراع.ولذا نستطيع حصر أسباب النزاع الأصلية اليوم في سببين رئيسين، هما الخاصرة الضعيفة لقيام أي تعاون أو تحالف حضاري في العالم، هما: مسألة الحدود الجغرافية بين الدول. ومكانة إسرائيل في العالم الإسلامي. وباقي أسباب النزاع التي تتبادر إلى الذهن –كالبحث عن الموارد الطبيعية، وأسواق التجارة- لا تنفصل عن هذين الأصلين، فإما أنها ناتجة عنها، أو تتخذها ذريعة للنزاع، بل إن النزاع على مصادر الثروة، وأسواق التجارة، لا يخرج عن دائرة التنافس الطبيعي، إذا لم ينتهك حدود الدول، وسيادة الشعوب واستقلالها، ورأيي أنه لو تركز جهد المخلصين في تحرير هذين المحلين ليأخذا مكانهما اللائق في النقاش العام على وسائل الإعلام، وجعلهما الهم الأول لدى الجمهور، فإننا سنبدأ حوارا حقيقيا بين الحضارات، يفضي إلى أوضاع مستقرة لصالح كل الأطراف. أو نخفف كثيرا –على الأقل- من الواقع المشتعل.

1 - مشكلة الحدود بين الدول:

لعل أول سؤال سيقربنا من الإشكال الحارق في موضوع الحدود الجغرافية بين الدول، - ولاسيما الحدود بين المستعمرات السابقة للدول الكبرى اليوم- هو: هل هذه الحدود طبيعية أم مصطنعة؟ هذا هو جوهر المشكل ! لأنه إن كانت هذه الحدود - بالوضع الذي هي عليها الآن- طبيعية، فنحن على الأقل نوجد اليوم في المرحلة ما بعد الاحتلال، نوجد في عالم شعوبه مستقلة، تملك قرارها الوطني، وبالتالي يوجد لدينا شركاء أنداد في الحوار حول

القضايا العالقة، سواء تعلقت بالحدود أو غيرها. ولكن إذا كان المحتل قد هيأ ظروف النزاع على الحدود قبل رحيله، فنحن نتحدث فقط عن مرحلة أخرى من مراحل الاحتلال، والنزاع ليس بين الجيران وحسب، بل تقف وراءه الدول المنتفعة من وجود البؤر المشتعلة بين كل دولتين، سنحاول تجنب التحكم والكلام العاطفي فيما يتصل بهذا الموضوع، وسنحاول بسط بعض عناصر الإجابة، دون الخلوص إلى إجابة محددة، وقوفا عند المعطيات الواقعية، والنوايا الحسنة المعلنة، وحفاظا على شعرة معاوية مع أي طرف يهمه حوار الحضارات. هنا نقف عند إشكالين يؤهلان موضوع الحدود بين الدول ليكون محورا هاما من محاور الحوار بين الحضارات، كون هذا الحوار يرجى أن يؤدي إلى الرقي بالمعاملة بين الدول، والمكونات الحضارية في العالم، إلى مستوى يتجاوز الرغبة في السيطرة، والإخضاع، والمركزية. الإشكال الأول: هو العلاقة السياسية التي تربط بين الدول الكبرى ومستعمراتها القديمة. والثاني: ضعف أداء منظمة الأمم المتحدة في التعامل مع النزاعات على الحدود. هذان الإشكالان إن لم يكونا دلالة على النية المبيتة لإيقاع الدول المستقلة حديثا في دوامة الحروب الحدودية، فسيكون –على أقل تقدير- دلالة على أن النظام العالمي بشكله الحالي لا يفتل في حبل الحوار والسلام والتعايش بين سكان العالم. أيا ما كان الوضع فالموضوع يلزم حملة الرسالة الحضارية طرقه بأدق ما يمكن من الصراحة والشجاعة والحكمة للخروج بخلاصات تتجاوز الوضع الحالي.

أ- علاقة الدول المتصارعة على الحدود بالمستعمر (بكسر الميم) السابق:

هل يجب على الدول الخارجة لتوها من نير الاحتلال أن تفتح جبهة المواجهة والعداء مع محتلها السابق؟ ولاسيما إذا كان الاستقلال عبارة عن تفاهم ما بين الفريقين؟ ولكن هل يعقل أن يصبح المحتل عدو الأمس القريب - بعدما نهب وقتل ونكل...- الحليف الاستراتيجي الأول لهذه الدول التي خرجت من وضع الاحتلال؟ هذان هما طرفا الإشكال في هذه العلاقة، لو كانت العلاقة علاقة سلام يرتب وضع الاستقلال للدولة مع محتلها لكان مفهوما، فالدولة وهي خارجة من رحم المعاناة تحتاج إلى فتح آفاق جديدة للعلاقات الخارجية، وحتى الدول التي أساءت إليها قد لا تكون مستعدة لمحاسبتها، ولكنها تتفرغ لبناء الوطن، وجيل جديد يحمل على عاتقه تجاوز الوضع قبل الاستقلال. وللدقة فهناك عاملان في هذه العلاقة يثيران شكوك الشعوب في حقيقة العلاقة التي تربط بين هذه الدول الكبرى وأنظمتها السياسية.

- الأول: درجة التحالف القائم بين تلك الدول المستعمرة (بكسر الميم) سابقا، وبين هذه الدول، والقائمة على الشراكة الاقتصادية المفتوحة، وتبادل المعلومات على كافة الأصعدة، ولاسيما على مستوى الأمن، وأسوأ أوجه هذه العلاقة هو التدخل السافر أحيانا والمستتر أحيانا في أي أزمة داخلية في الدول المستعمرة (بفتح الميم) سابقا، والسخرية المثيرة حقا في تلك العلاقة هي إمساك بعض الدول الغربية خيوط العلاقة مع مجموعة دول متعادية فيما بينها، فيصبح الوضع: توتر قائم بين الدول - التي كانت تجمعها مصيبة الاحتلال- على الحدود، في مقابل علاقة جيدة لجميع هذه الدول مع ذلك المحتل. ففرنسا مثلا وهي المحتل الأول سابقا للدول المغاربية، ترتبط اليوم بعلاقات جيدة مع كل هذه الدول، لكن هذه الدول فيما بينها توجد مشاكل مزمنة على الحدود، وفي كثير من مراجعها في الصراع تعتمد على شهادة المحتل السابق، وسلوكه أثناء وبعد الاحتلال.

- الثاني: تصدير السلاح لكلا طرفي الصراع: هل يبرر حق تسويق الصناعة العسكرية للدول المستعمرة (بكسر الميم) سابقا، أن تبيع السلاح لطرفين تعلم هذه الدول أنها متنازعة على الحدود التي خطها المحتل نفسه قبل رحيله؟ أليست مسؤولية هذه الدول هي التدخل بما ينزع فتيل التوتر على الحدود التي رسمتها، بدل ترتيب معاناة صراع الإخوة على معاناة الفصل العشوائي بينهم في الحدود؟ من منطلق حضاري فإن غلبة الهاجس التجاري على حماية أمن الدول واستقرارها، سقوط أخلاقي يرسب صاحبه في اختبار الحوار بين الحضارات. ولكن مع كل ذلك يمكن السؤال مرة أخرى: أليس هذا هو المتاح الممكن للدول الغربية في التعاطي مع هذه الدول التي تعاني تخلفا في أنظمتها التعليمية والسياسية، وتجعل السلاح اللغة الوحيدة الممكنة بينها، في الوقت الذي تعيش فيه دول أخرى مشاكل على الحدود، بل دعوات للانفصال دون أن يؤثر ذلك على سير العلاقة في الميادين الأخرى التي لا يمسها الخلاف؟كيفما كان الجواب فأطراف الحوار بين الحضارات يمكن أن يمنحوا الخلاف الحدودي بين الدول بعدا يتجاوز الأفق السياسوي الضيق، بما يخدم الاستقرار والسلم العالمي.

ب- ضعف أداء منظمة الأمم المتحدة:

في هذه النقطة لن يكون همي الأفشال التي راكمتها هذه المنظمة في تدبير الصراع بين الدول، والقضايا العالقة لأجيال متلاحقة، حتى استقر في وعي كثير من الشعوب –عن

حق- أن هذه المنظمة طرف في الصراع بين أي طرفين في العالم، تتدخل دائما لصالح القوى الكبرى، وحين تختلف القوى الكبرى فإن المنظمة تدخل في سبات من السلبية لا تكاد تبدي موقفا، وإنما المهم هنا أن المنظمة راكمت تجربة معتبرة، ولديها خبراء في حل النزاعات، وما يكفي من المؤسسات التخصصية، ولكن تركيبتها التنظيمية وتمثيلية الدول فيها، استهزاء بالحضارات الإنسانية المتنوعة، والمتابعة لعمل المنظمة، فطرح المشكل بين الحدود في أي حوار جدي بين الأطراف الحضارية، ينبغي أن يثير تركيبة الأمم المتحدة، ولاسيما مجلس الأمن، الذي يعتبر تجليا عالميا للاستبداد، والحوار من خصائصه الانفتاح على كل القضايا، وإذا كنا مجبرين في أروقة الحوار بين الحضارات على السكوت عن وضع الكبار، فسيكون هذا الحوار تغطية للوضعية الكارثية التي تهدد العالم بحكم النفوذ الأحادي، والحوار بين الحضارات إن لم يستهدف هذا النفوذ الأحادي فلا ينبغي أن يكون أصلا، وغني عن الإشارة أن الحوار لن يهدف إلى المساواة بين الدول في قرار المنظمة، باعتبار الكيان السياسي المستقل، كما لا ينبغي أن تكون القوة الاقتصادية والعسكرية معيار التأثير في قرارات الأمم، ولكن الأقرب إلى الرقي الحضاري، أن تكون الكتل البشرية الممثلة في المنظمة هي المرجع في القرارات الخلافية. وهو ما سيدفع الدول للبحث عن أحلاف حقيقية تمنحها قوة التأثير في قرارات الأمم المتحدة. وسيسهم أيضا في حل النزاعات الحدودية لهذه الغاية.

2 - وضع إسرائيل في العالم الإسلامي:

تمثل إسرائيل –بدون استحضار خلفيتنا الدينية، التي تجعل من الإساءة للمقدسات الثلاث مسألة حياة أو موت- الانكسار الحضاري لعالم اليوم، فقد ظلت شاهدة بفظائعها المتنوعة على أن التقدم الذي حصلته الإنسانية يعاني في شقه الثقافي الحضاري، وإن الثورات العلمية التي فجرها الإنسان في القرنين الأخيرين تفتقر إلى ثورة من القيم، تحافظ على منطق التقدم لدى الإنسان، حتى لا يصير ما نراه تقدما، مجرد تمرغ في أوحال التخلف، بمستويات متقدمة، قد يكون التضليل الإعلامي، وتزاحم الأحداث على الساحة الدولية قد حجب كثيرا الضمائر الحضارية، عن مناهضة إسرائيل طيلة عمرها القصير الفظيع هذا. وهذا ما يجعل الوقوف إلى جانب القضية الفلسطينية –في الآونة الأخيرة- يأخذ منحى تصاعديا، بينما يهوي التأييد الشعبي في العالم لأطروحات إسرائيل الملتبسة.

لن أهتم إذا بالموقف الشخصي من إسرائيل، ولن أناقش القضية من طرفنا نحن المسلمين باعتبارنا ضحايا هذه القضية، ولكن أثير بعض النقط التي يمكن أن نتوافق عليها من منطق حضاري يحكم هذا الموضوع. وأتوقف سريعا عند نقطتين: الأولى: جناية القضية الصهيونية على حضارة اليوم. الثانية: خطورة إسرائيل على أي تقارب حضاري بين الدول.

أ- جناية الصهيونية على العالم المتحضر:

في الوقت الذي كان الغرب ينسحب من الدول المستعمرة، ويتقدم خبراؤه في إمداد الإنسانية بأرقى ما وصل إليه الفكر الإنساني، في العلوم الإنسانية والتجريبية، وقيم الحرية، وإعلانات حقوق الإنسان، ومناهضة التمييز بكل أشكاله، نجحت الحركة الصهيونية في ربط أحلامها العدوانية،بمصالح الغرب في العالم الإسلامي، وقد عبر عنها بصراحة هرتزل «ومن هناك (فلسطين) سوف نشكل جزءا من استحكامات أوروبا في مواجهة آسيا كموقع أمامي للحضارة في مواجهة البربرية"[1] وفشلت المختبرات العلمية الغربية، في إيجاد صيغ للمحافظة على مصالح دولها في العالم الإسلامي دون زرع كيان يحمل كل القيم التي نهضت أوروبا وأمريكا لمحاربتها في بلدانها، وبدل أن تصبح أوروبا وأمريكا حقا مهوى أفئدة المستضعفين، يعودون لبلدانهم بمنتجات الفلسفة والعلوم التقنية لبناء أوطانهم، الأمر الذي يحافظ للغرب على مكانته في العالم الإسلامي كونه صاحب اليد البيضاء لبناء الأوطان الإسلامية، وانتشالها من براثن التخلف، فقد صدمت الشعوب المسلمة بهذا الغرب المتطور فكريا وعلميا، يزرع بكل إرادته - في أقدس بقعة في قلوب الملايين من المسلمين- عنصرا غريبا، سمح له بوأد كل القيم الأوروبية والأمريكية، لبناء أحلامه الموغلة في التخلف الثقافي، والعنصرية الدينية والجنسية ضد كل من ليس يهوديا، ولا ينتمي لبني إسرائيل[2].ونلخص أوجه المعرة الحضارية التي ألحقها الكيان الصهيوني بعالم اليوم، ولا سيما أوروبا وأمريكا - لا يمكن لأي عاقل أن يختلف في بشاعتها- فيما يلي:

(1) الدولة اليهودية ثيودور هرتسل نسخة مصورة على شبكة الأنترنت لم يذكر فيها المترجم ولا الناشر. ص19. ويلاحظ أن هرتزل لخص الحضارة كلها في الغرب والبربرية في آسيا.

(2) مع الاحتفاظ بما قرره المفكر العربي المسيري من أن الصهيونية لا تمثل اليهود ولا بني إسرائيل، من الناحية الجينية كما تدعي. ينظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية عبد الوهاب محمد المسيري 389/6.

• قبول استنبات كيان جديد في أرض يملكها أهلها، ويسكنونها، جيلا بعد جيل، كما تسكن كل الشعوب أراضيها، بغض النظر عن قصة:"أصل وهجرة الشعوب"[1].

• الاعتراف الرسمي بيهودية الدولة[2] دون النظر إلى فرادة هذا الكيان بعنصرية خاصة تتجلى في مستويين: الأول: العنصرية الدينية، بحيث لا يدعوا هذا الكيان ولا يقبل في دينه من ليس يهوديا بالوراثة. والثاني: قيامه على التعصب للجنس الإسرائيلي ضد شعوب العالم، بما لا مجال لإخفائه والتستر عليه.

• تسليحه بالسلاح المدمر، المحرم دوليا على أعرق الشعوب في العالم المعاصر، وتزويده بكل مقومات العدوان العسكرية والسياسية، والقانونية.

• اعتراف العالم بكيان قائم على الأساطير القديمة التي تتعارض كليا مع المنظومة «الكونية" لحقوق الإنسان.

• غض الطرف وتجاهل مصير الشعب الأصلي بفلسطين، المهجر والمروع والمقتول.. وعن أوضاعه تحت نير المحتل العنصري.

• فشل العالم في إلزام إسرائيل بأي من قرارات الأمم المتحدة، التي لا تكون في صالحها[3].

• تعامل العالم مع قادة الحرب الذين أدينوا بجرائم الحرب والإبادة في حق شعب محتل أعزل محاصر[4].

تلك ملامح من الوضع الحضاري لدول، سمحت لإسرائيل بكتابة تاريخ الحضارة في القرن العشرين بدماء الفلسطينيين. لقد أصبح التمييز التي اشتكى منها اليهود طويلا إحدى

(1) يراجع في هذا الموضوع كتاب «في فقه الصراع على القدس وفلسطين" دار الشروق 2006م.

(2) معنى يهودية الدولة محمد علي الحلبي الجزيرة نت http://www.aljazeera.net تاريخ الزيارة 31مارس 2018م. الساعة: 1:16

(3) مجلس الأمن والقدس قرارات كثيرة بدون تطبيق هيئة تحرير موقع الجزيرة نت مرجع سابق.

(4) يراجع ملخص تقرير الأمم المتحدة حول جرائم حرب غزة 2014م. موقع https://www.i24news.tv/ar تاريخ الزيارة: 9 أبريل 2018م.

أهم الخصائص التي قبل الغرب أن تتأسس عليها إسرائيل[1]. فهل يمكن أن يجري حوار في ظل الوضع القائم في الأراضي الفلسطينية؟

ب- عقبة إسرائيل في أي تقارب حضاري ممكن بين دول العالم:

إسرائيل في حدودها المصطنعة في فلسطين ليست سوى عاصمة الصهيونية الممتدة عبر شبكات اقتصادية وثقافية وسياسية تتغلغل في مفاصل كثيرة من دول العالم، وبدون الدخول في الجدل حول نوايا إسرائيل الكبرى –وهو جدل وجيه طبعا، لكن نحاول ألا يكون أسلوبنا في هذا الكتاب- فإن المعطيات الواقعية، تؤكد أن مصلحة إسرائيل وأمنها القومي -بعكس أي دولة أخرى- يرتبط بسيادة الصراع في العالم، وليس لإسرائيل من مصلحة يمكن أن تجنيها وراء السلام العالمي، ولو سلمنا جدلا بأن إسرائيل قد أصبحت دولة عادية – وعمرها وطريقة تأسيسها يأبيان ذلك- فإن صراعها مع العالم الإسلامي –لا أقول العربي ولا الفلسطيني- صراع حياة أو موت، وحيث إن العالم الإسلامي ليس مدينة صغيرة كهيروشيما يمكن مسحه من الخريطة برمية ذرية، فليس أمام إسرائيل سوى افتعال أسباب الصراع، ولو أدى ذلك لزعزعة مصالح داعميها وحلفائها، وهذا يظهر من العجرفة التي تواجه بها بعض الدول الغربية التي تنتابها صحوة ضمير –والضمير هناك بالفعل موجود تمثله كثير من الحكومات والجمعيات والقوى المدنية والأكاديمية، والمنظمات غير الحكومية- فتصادم مصالح إسرائيل دون قصد[2].

تعمل تلك الشبكات الممتدة في شرايين دول العالم، لصرف الانتباه عن الوضع العنصري لإسرائيل من جهة، ولتهيئة أحلاف التطبيع، الذين يدخلون في صراع مستميت مع مكونات شعوبهم، لانتزاع حق الاعتراف بإسرائيل !. وهكذا فإسرائيل ستكون عقبة أمام أي تفاهم، وتقارب بين الحضارات للأسباب التالية:

• لن تتق الشعوب الإسلامية –مهما كانت الأنظمة واقعية مع إسرائيل- في حوار يحشر إسرائيل –بكل تاريخها الدموي الموثق بالصوت والصورة - ضمن الحضارات المتحاورة.

(1) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية عبد الوهاب محمد المسيري 389/6.

(2) رفض الإتحاد الأوروبي نقل السفارة الأمريكية في تل أبيب إلى القدس. موقع هبة بريس المغربي: http://www. com.hibapress تاريخ الزيارة 31 مارس 2018م. الساعة:1:27.

• ستكون حرية الشعوب، وحقها في تقرير مصيرها، ضمن أجندات أي حوار حضاري جاد، ولن تكون إسرائيل طرفا في ذلك الحوار، إلا بالقدر الذي تضلل به الأطراف التي قد لا تزال تؤمن بأنها جزيرة الحريات والديمقراطية بالشرق الأوسط.

• إذا أسفر الحوار بين الحضارات عن مخرجات مقبولة للطرفين حول المصالح المتبادلة بين الغرب والعالم الإسلامي، فستصبح إسرائيل في وضع صعب من وجهين: الأول: سيتاح للدول الإسلامية التعبير عن وضع إسرائيل عبر الوسائل الإعلامية، والمؤسسات بالغرب، وهذا يعري ظهر إسرائيل في معركتها ضد شعوب العالم الإسلامي، ويسقط دعوى المظلومية التي تأسست عليها إسرائيل في الذهنية الغربية. الثاني: ستستغني الدول الغربية بذلك التفاهم عن الواسطة الإستراتيجية التي تمثلها إسرائيل حاليا للغرب، في العالم الإسلامي. وإسرائيل خبيرة في عرقلة مثل هذه المساعي.

• الأساطير العقدية التي أسست إسرائيل، لن تقبل بالحلول الوسطى التي تقبلها الدول الأصيلة استشرافا لعلاقات أفضل مع الدول، ولن تقبل بحل الدولتين، ولا بدولة واحدة يتعايش فيها اليهود والنصارى والمسلمون جميعا، ولن تقبل حتى بوجود دولة فلسطينية منزوعة السلاح، ولا بأي دولة مجاورة قوية مستقلة عن نفوذها، تلك هي إسرائيل التي عبر عنها سلوكها طيلة هذا الصراع المرير.

وسيكون اشتراط الاعتراف بإسرائيل طرفا في حوار حضارات، إحدى الوسائل لعرقلته من الأساس، أو لإجرائه على سنن مسلسل السلام مع الفلسطينيين الذي غطت به إسرائيل مخططاتها في القتل، والتشريد، والتهويد، والفصل العنصري.. ولم يتجاوز ذلك الحوار مع الفلسطينيين الواجهة الإعلامية.ولسنا بحاجة إلى التأكيد على أن إسرائيل لا تمثل الديانة اليهودية، والحوار مع اليهود من منطلقات دينية - لا تؤمن ب"إسرائيل الكبرى"- جزء من مهام الحوار بين الحضارات، كما أن منظمة إرهابية سفاكة للدماء المدنية،لا يؤهلها تمسحها بالإسلام أن تكون طرفا في الحوار أيضا.

خلاصة:

ذلك جانب –أزعم أنه كاف- من الضرورات التي تسند ثقتنا بالحوار بين الحضارات، ويجعلنا نتعالى عن جراحات الواقع، ونمد حبل التواصل لأصحاب الضمائر الحضارية

الحية، الذين تقتضي حكمة الله تعالى أن يكونوا في كل أمة، ويضطرنا طلب اللقاء مع أولئك الأفاضل، أن نتجاوز أحوال الإحباط، وتعميم الحكم السلبي على أطراف هذا العالم، الذي يكرسه الواقع السياسي. باعتبارنا مسلمين فإن ما يتلى على مسامعنا، ونقرأه من الكتاب الكريم، يلزمنا أن تكون طبيعتنا حوارية متواصلة لا تخشى الحجة، بل تهتبل بالحق أيا كان مصدره، يضطرنا القرآن الكريم وسنة رسولنا الكريم، أن نأخذ الحوار مبدءا في التعامل مع كل مخالف، ونهيأ ما يلزم من أدوات الحوار ليكون حوارا قويا يسطع بالحجة المعهودة في الإسلام، دون أن تحملنا تلك القوة والحجة البالغة على عدم إنصاف الخصم، والوقوف معه على خشبة مشتركة، تعينه على قبول الحوار والخضوع لمقتضيات البرهان، لكن وقبل كل ذلك، ومعه، وبعده، لا ننسى أننا أمة رسالة، تدل الناس على ربهم، فسعينا للحوار لن يكون وسيلة للإفحام، واستعراض القوة، بل هو رفق كله، ورحمة، وكسب للقلوب، وإن تعثرنا في كسب المواقف. كما يضطرنا الواقع ويضطر شركاءنا في الحوار إلى خدمة الإنسان، بما يقيم صلبه، ويغني عقله، ويغذي جسمه، ويستجيب لتطلعاته الروحية العميقة. ويضطرنا الحفاظ على الأرض التي نسكنها مع إخواننا لآدم، أن نتناول قضايا الأرض، ونزع أسباب التوتر، وسيادة القيم الإنسانية المشتركة بين الشعوب، « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ 23"[1].

(1) سورة يونس الآية: 23.

Manar al islam
islamanar.com

الفصل الثاني: رهانات الحوار بين الحضارات:

يمكن لقائل أن يقول: جميع تلك الضرورات يمكن حلها دون اللجوء إلى حوار مع حضارات لا تعترف لنا بوجود مستقل عن حضارتها، ومهما تنوعت تلك الضرورات فعنوانها الكبير –من جهتنا نحن المسلمين- هو الاستضعاف، والاستضعاف مرحلة من مراحل الدعوة والقضية الإسلامية، وكما جرت سنة الله بحلول الاستضعاف حين توجد أسبابه، فكذلك يحل النهوض والقوة إن أعددنا الأسباب، وأسباب النهوض ذاتية، وليست موضوعية تستدعي منا استجداء الحوار مع أحد ! وهذه المسألة تثير كلاما كثيرا، يمكن أن يسود كثيرا من صفحات هذا الكتاب، بما يخرجه عن الحجم المرجو له، ولكن نكتفي بمسائلة هذا الطرح –وهو طرح موجود في واقعنا الإسلامي فعلا- الأسئلة التالية:

• أين هي عالمية الإسلام من هذا الطرح؟

• هل الإسلام قضية أمة؟أم إيديولوجية حزب؟ أم رسالة الله للعالمين؟

• أين هو نور الدعوة المتوجه لأي قلب مهما كانت علاقتنا بمن يحمله؟

• ألم يكن عمر ابن الخطاب عدوا شرسا للإسلام لا يلوي على شيء من خطابه، وفي لحظة صفاء تسلل الإسلام إلى قلبه؟

• ألا تلزمنا الآية الكريمة: «وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ 6 «[1] أن نوفر للإنسانية ظروفا ملائمة لسماع الخطاب القرآني بدون وسائط؟.

إنه مهما كانت وجاهة تلك الضرورات، قوة وضعفا، فإن الحوار مع الحضارات سيكون أولوية إسلامية في مرحلتي الضعف والقوة، إن الإسلام دعوة قائمة مادام في الدنيا أحد لا يعرف الله، ولا يقف عند حدوده، مادام في الدنيا ظلم، وعسف، لا بل لابد منه حتى إذا ساد العدل، وتساوى الناس في الحقوق والواجبات، سيبقى الدين بشرى وذكرى لأهل الحق، كما سيبقى وعيدا ونذارة للظالمين أنفسهم. « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ

(1) سورة التوبة الآية 6.

بِهِۦ قَوۡمًا لُّدًّا 97"[1]. لذا فإن الحوار بين الحضارات إن لم تحملنا عليه تلك الضرورات، فإن وراءه رهانات مطلوبة لكل ذي رسالة حضارية، وأرى أن رهان الحوار بين الحضارات يتحدد في ثلاث مستويات مرتبة تصاعديا هي: رهان التعارف، رهان التعاون، رهان التحالف.

الفرع الأول: رهان التعارف:

يجادل بعض المثقفين عن مقولة: «الإسلام دين إقصاء" بغياب أي ذكر لكلمة تسامح ومشتقاتها في القرآن الكريم، ولو حسنت نية المجادل، وكان استقراءه موضوعيا لوجد في مقابل ذلك غياب أي ذكر للسيف، ولو فعل لاضطره ذلك إلى البحث عن مدلولات السيف التي هي القتل والجهاد –في بعض معانيه- وسيكتشف حينها أن غياب مصطلح التسامح في القرآن–وهي مسألة مصطلح مولد عن ثقافة يفصلها عن نزول القرآن زمان ومكان[2]- لا يغيب معها مدلولها بكلمات أكثر عمقا ودلالة على المقصود، كالصفح، والعفو، والمن، والصبر، والإحسان، والحلم، والإعراض، والترك، والغفران، والسلام وغيرها.. لكن الغفلة الكبرى عن الخطاب القرآني يكون عن البذرة الطيبة التي ربط بها القرآن الكريم الناس جميعا، تلك البذرة التي تضمن للناس إن تعاهدوها فيما بينهم كل المفردات الدالة على التقدير والاحترام، والسلام المتبادل. ذلك هو التعارف الذي لخص به القرآن الهدف من وجود الناس أجناسا وشعوبا مختلفة. قال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ 13". إن التعارف بألف المشاركة، يجمع طرفين كلاهما يعرف بنفسه ويعرف الآخر. ومصالحنا المشتركة مع كل الحضارات - ومنها مصلحة بلوغ الدعوة- تحتاج تعرفا وتعريفا:

أولا: التعرف:

مما يبعث على الأسف الشديد أن قيمة التعرف على الآخر لم تأخذ –في الغالب الأعم- إلا منحنيات الاعتداء، حيث تنحصر مهمة التعرف على معرفة الخصم، ليسهل القضاء عليه من أضعف ثغوره، وإذا كان من المنطقي أن يعرف الإنسان عدوه ليتقي شره، وليضربه الضربة القاضية حين تزف الآزفة ويقتضى الأمر، فإن الحوار بين الحضارات، يستحضر

(1) سورة مريم الآية: 97.

(2) مقالة في الحرية عزمي بشارة ص8. يشير الدكتور عزمي إلى خطإ محاكمة أي قيمة خارج سياقاتها التاريخية والحضارية.

بعدا آخر لهذا التعرف، كونه يجلي الآخر المخالف بما يضع حقيقة الخلاف في حجمه الطبيعي، ثم بما يسهم في إيجاد آليات للتواصل الناجعة معه. ومع هاتين النقطتين يتجلى مستنقع العنف الذي لا قاع له بين الشعوب:

1 - معرفة حقيقة الخلاف بين الحضارات:

هل الأصل في الناس الخلاف أم الوفاق؟ إن الخلاف في الحالة الطبيعة معطى موضوعي، وليس منتجا شخصيا واعيا، إلا إذا فقدت العلاقة روحها الأخلاقي، فحينذاك لا حاجة للحديث عن الحوار أصلا. فإذا سلمنا بأن الخلاف معطى موضوعي وليس إنتاجا شخصيا، فيبقى التعامل معه أيضا، هل هو تعامل موضوعي يتعامل مع ما هو موجود، أو تأخذ الذاتية نصيبا كبيرا من تحديد أسباب الخلاف؟إذا تخفف الطرفان المختلفان من نوايا مسبقة لم يقررها الواقع، وتميزا بالتحقق والتثبت بدل الانطباع فستكون مساحة الخلاف ضيقة. هذا التبين والتثبت سيكشفان عن حقيقة هامة في أي خلاف: كون الخلاف يتركب من لب وجسم، أو نقول بذرة وشجرة، وواضح أن البذرة تعطي الشجرة، والشجرة تعطي البذور، وبذرة الخلاف تكون فكرة أو فكرتين، ثم يتفرع التأويل والشرح والانطباع، فتتشكل فروع كثيفة لفكرة بسيطة في أصلها، فإذا استطعنا توجيه العمل لاقتلاع البذرة فستسقط الشجرة من تلقاء نفسها، أما إن تتبعنا فروع الشجرة، فسيتفرع الجهد، وتبذر الطاقة، وما أسوأ منظر من يتتبع فروع الخلاف ليقطعها، ثم يمر على جذع الشجرة يسقيه ! وهناك أمثلة كثيرة للخلاف بين الحضارات اختلطت فيه حدود اللب بحدود القشور، بل الحديث عن القشور أصبح سلعة رائجة، وقلما يصبر الناس على استكشاف حقيقة الخلاف ومصدره ولبه. نذكر على مستوى التعرف على الآخر هذين النموذجين:نظرة الغرب إلى:

• الأزياء، وإلى جسد المرأة، والعلاقة بين الجنسين:

كلها فروع لثقافة راكمت نظريات انتهت إلى عزل هذه المظاهر عن مسمى الأخلاق، وتضمينها ضمن الحياة الشخصية للأفراد، فنحن إذ نجادل هذه الثقافة في مظاهرها نحاكمها إلى أصولنا في التربية والأخلاق، ومن الإجحاف أن يحاكم الإنسان بأصول لا يؤمن بها. وكما يسيء المحافظون منا محاكمة مظاهر وفق أصول لا ترتبط بها، كذلك يسيء

التقدميون استيراد هذه المظاهر وإلباسها عنوة لأشخاص لا يحملون أصولها الثقافية، فتصبح النتيجة معركة غير منطقية. وغير هادفة أيضا، ويصبح النقاش انطباعيا لا فكريا.

• وظيفة الدين في السياسة والمجتمع:

يحكمه في الغرب تاريخ من الاستبداد الكنسي، والتواطؤ بين الحكام ورجال الدين ضدا على مصالح الأمة، فمقولة «الدين أفيون الشعوب" لا جدال فيها هناك، لكن هذه المقولة لا تحتمل الإسقاط في الواقع الإسلامي الذي مثل فيه رجال الدين والعلماء قادة التغيير والانتفاض ضد الحكام باسم الدين، بل إن الإسلام بنصوصه المتواترة يصطف إلى جانب المستضعفين ضد المستكبرين أيا كانت حيثياتهم، ولو وجد الغرب من رجال الدين من يصطف إلى جانبهم في عز الثورات على الأنظمة الشمولية، لما تلازمت عداوتهم للسلطة بعداوتهم للدين، فيكون استجلاب العلمانية الحادة بمفهومها الفرنسي، تجاهل لصلب الخلاف الذي يتمايز فيه الدين الإسلامي في واقع المسلمين عن الدين الكنسي في واقع الغرب.

وقد أولى القرآن الكريم مقدمة التعرف على الآخر قبل الحكم عليه أهمية بالغة، فقد حدث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أن أحد أصحابه وقد بعثه إلى قوم يستخلص منهم واجب الزكاة، وكان بينه وبينهم شيء في الجاهلية فخافهم على نفسه، فاختلق أمام النبي صلى الله عليه وسلم رواية كاذبة يحرضه فيها على غزوهم، يدعي أنهم ارتدوا ومنعوا واجب الزكاة.. لكن النبي صلى الله عليه وسلم وقد أرسل غيره للقيام بالمهمة أمره أن يتثبت من أمرهم، قبل أي مبادرة، فتبين أن الناس في أحسن حال[1]، فأنزل الله - يخلد هذه القيمة النبوية في التثبت والتبين- هذه الآية: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ 6"[2]. وعاتب الله أحد الصحابة قتل مشركا - في مطاردة أعقبت هزيمة المشركين- بعدما أعلن إسلامه تحت ظل السيف، فقال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا 94 «[3] لاحظ تكرار الأمر بالتبين في سياق

(1) سيرة ابن هشام 204/3.

(2) سورة الحجرات الآية:6.

(3) سورة النساء الآية94.

واحد. ولا حظ أهمية التبين وتنبيه القرآن إلى أننا جميعا نمر بمراحل من الجهل ثم نتعلم، فلو لم يصبر بعضنا على بعض ويتثبت من حقيقة مواقفنا لكان أكثرنا عرضة للهلاك بسبب غياب تقدير حقيقي للمرحلة التي يعيشها الإنسان من الاعتقاد.

وقد ضرب الإمبراطور البيزنطي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مثالا رائعا في قيمة التثبت حين بلغه كتاب محمد صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام، فاستدعى من يحدثه عن دعوة الإسلام، قبل أن يقرأ الكتاب، وحيث لم يجد أحدا من المسلمين هناك، فقد اتخذ كل الاحتياط ليكون أبو سفيان - وهو رأس الحربة في الجزيرة العربية ضد الدعوة الإسلامية حينها- منصفا في أجوبته، حول الإسلام ونبيه. ودار الحوار كله حول شخصية النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة، وسلوكه الدعوي، ودرجة الإقبال على دعوته، وأدى تعرفه هذا على النبي صلى الله عليه وسلم إلى احترام متبادل بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم. وما أكبر الفرق بين سلوك هرقل وسلوك كسرى الذي مزق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بمجرد سماع دعوة الإسلام.

2 - إيجاد الوسائل الناجعة لحل الخلاف:

يتصرف بعض قادة الحضارة المعاصرة بمنطق التشفي والانتقام، حين يستدعون عبارات التهديد والوعيد، ومنطق المتنبي القديم:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وهذا منطق له حدود مع المعتدي فقط،يبدأبعدما تقام الحجة، وتعطى له فرصة الدفاع عن نفسه، ثم يصر على ما هو عليه، فإن منطق القوة يجدي في تطويعه، أما والحال أن حضارة كلها تعتقد بوجود حرب حضارية عليها، فإن وسائل القوة لا تصير هذه الحضارة خاضعة، بل يزيدها القمع والاضطهاد تشبثا بالفكرة، والتنطع في الدفاع عنها، بما يغيب أي منطق عقلي في ذلك الدفاع، ما يؤدي إلى تهافت دعوة العقلاء ممن يحاولون مقابلة القمع بما يستطيعون من وسائل أدبية وسياسية بدون أو مع البندقية، وهذا في النهاية لا يخدم من يسعى إلى معالجة المشكل من أصله، لأن الوسيلة غير مناسبة، نظرا لأن الخلاف وحقيقته لم يقدر حق قدره، أي لم يتم التعرف على الخصم تعرفا يكشف خصوصياته الحضارية، والتاريخية، وتركيباته الاجتماعية، وولاءاته الدينية والسياسية.

ثانيا: التعريف:

لا تكتمل قيمة التعارف بالتعرف على الآخر، دون إتاحة الفرصة له أيضا للتعرف علي، لأن لا فائدة من التعرف من جانب واحد، وأي علاقة بين من يفتر عن ثغر الابتسامة، ومن يكشر عن أنياب العض!؟ فيقتضي التعايش الحضاري استنفاذ الوسع لتقريب الصورة الحقيقة لواقع حضارتنا، من الآخر معللة بما يلزم، لتكون أقرب للقيم الإنسانية التي تتفق عليها كافة الحضارات. وعرض الحضارة والتعريف بها أيضا ينبغي أن يتركز على صلب الحضارة، والاهتمام بالمشترك بين الحضارات، وقد أبدع جعفر بن أبي طالب في عرض الحضارة الإسلامية، بخصوصياتها العقدية، ومشتركها الإنساني، أمام النجاشي بعدما حاولت قريش الإيقاع بينه وبين الصحابة الذين آواهم واستقبلهم في بلده، فقال جعفر: «أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا.. فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد.. من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء..."[1].

وقد تطورت وسائل التعريف بالحضارات، وكثر التنافس على استقطاب السياحة بشتى وسائل الإغراء، عبر مراكز اتصال،des centres d'appelsتنتدب عاملين مهمتهم التواصل مع الراغبين في السياحة من شتى أنحاء العالم، غير أن المسألة لا يتولاها إلا الأفراد لصالح أعمالهم التجارية، وتعاني في أحيان كثيرة من التدليس التجاري، وغياب الخبرة، والثقافة الحضارية أصلا من جهة المستقبلين، كما تضيع فرصة التواصل الحضاري هنا لغلبة هاجس المتعة المادية لدى السائح المستهدف. ولو أسس دعاة الحوار بين الحضارات مثل هذه المراكز، وجعلوا مهمتهم التعريف بالجوانب الحضارية لكل أمة، وتسهيل السياحة عبر العالم لهذا الغرض، لكنا إزاء وضع أفضل مما نحن فيه الآن.

ومن جهتنا نحن المسلمين «فالكثير من سكان أوروبا وأمريكا الشمالية لا يستطيعون التمييز بين اندونيسيا وماليزيا، ويعتقدون أن دارفور في غرب السودان هي نفسها السودان"[2]

(1) سيرة ابن هشام 248/1.

(2) حوار الحضارات روسيا والعالم الإسلامي فازلنيوف ص5.

فالحركة الذؤوبة لتعريف الناس بالإسلام، ورفع أغلال الفهم السيء لدى الأمم الأخرى، مهمة الداعية، الذي لا يكتفي بالجلوس في قاعاته يتصدى لأسئلة المقبلين على الإسلام وحسب، ولا ينتظر الفرصة تحين بسبب حادث يلفت نظر الناس إلى الإسلام، بل هو يتكلف صنع المناسبة، واستثمارها لصالح التعريف بالدعوة الإسلامية، اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، الذي لم يترك سوقا أو موسما من مواسم الجاهلية إلا غشيه، ودعا الناس إلى ربه، ولم يثبطه ما يقوم به أبو لهب وغيره من نشر الإشاعة في الناس بين يديه، ومن خلفه، تحذر الناس من التواصل معه، ولئن صعبت تلك الإشاعات مهمة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث وجد أكثر الآذان قد سبق إليها خطاب قريش، وكلفته تلك الإشاعة في هجرته إلى ثقيف أتعابا كثيرة، فإن النتيجة الكبرى التي حولت مجرى الدعوة الإسلامية تحولا جذريا، بدخول الأنصار في الإسلام، لم تكن سوى ثمرة من تلك العروض التي يلقيها صلى الله عليه وسلم على مختلف القبائل بموسم الحج.

فالتعارف بشقيه التعرف والتعريف كفيل بتمييز الخبيث من الطيب في الفكر الإنساني، وكفيل أيضا بنصرة الحق حيثما وجد، وقد كانت هذه إحدى الخلفيات المتحكمة في سلوك الصحابة الدعوي، فقد كانوا يطلبون من الناس أن يمنحوهم فرصة الاستماع، ثم يقررون بعد ذلك في كيفية التعامل مع الدعوة الإسلامية، ومن أروع الأمثلة ما ضربه سفير الإسلام إلى يثرب المركز الجديد للإسلام ونبي الإسلام، وكانت مهمته أن يقنع سادات الأوس والخزرج الذين لم يسلموا قبل انطلاق الهجرة إلى المدينة، ولم يكن مع مصعب جيش ولا سلاح، وإنما معه أخلاقه وسلوكه في التعامل المرتكز على تعرف بيوت الأنصار وتعريفهم بالإسلام، ومعه القرآن الكريم يعرف نفسه بنفسه، فمن سلوك مصعب: قصته مع أسيد بن الحضير حين جاءه معترضا على دعوته" فوقف عليه متشتما فقال ما جاء بكما (يقصد مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة سيد الأنصار) تسفهان ضعفاءنا اعتزلا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره؟ قال: أنصفت.. فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن..قال: ما أحسن هذا الكلام.. ثم تشهد شهادة الحق"[1].

(1) السيرة النبوية لا بن هشام 47/2.

لقد شكل غياب التعريف بالحضارة الإسلامية لدى الآخر أحد الثغور التي شغلتها كتابات المستشرقين، والمستعربين في العقود الأولى من القرن العشرين وأواخر القرن التاسع عشر، ومع حفظ الشكر والامتنان للمنصفين من هؤلاء، فإن الكتابات الغربية، والفرنسية على الخصوص لأسباب متعددة، أحاطت الحضارة الإسلامية بسوارين من سوء الفهم، الأول همجية المسلمين، والثاني العصبية الدينية، وقد تعامل هؤلاء مع مسألة الدين بالحمولة الثورية التي خلفها صراعهم مع الكنيسة، وأصبح الدين عندهم بغض النظر عن مضمونه مقترنا بالعصبية والأنانية والعمى الثقافي[1]. وهذا يعيدنا إلى ضرورة التعريف بأنفسنا، حتى لا يقوم بذلك غيرنا، وما أدق عبارة الإمام الشافعي عن الإمام الليث بن سعد الذي كان أحد الأفذاذ في درجة أبي حنيفة ومالك والشافعي، لكنه لم يكتب له أن يترك مذهبا متبوعا: كان الليث أفقه من مالك ولكن ضيعه أصحابه. فالتعارف وإن كان يفيد المشاركة والسعي المشترك لتبادل المعرفة، إلا أن رسالتنا الحضارية لا يمكن أن تتوقف إذا لم تجد رغبة في المعرفة المتبادلة من الطرف الآخر، إن مهمة التعرف على الآخر وتعريفه بنا، ضرورة كونية وشرعية، تقوم عليها مصالح الدين والعمران، فيطلب منا أن نقوم بمهمة التعارف بشقيها، ونلح عليها، إلى أن يوجد من يهمه التعارف ويؤمن به، على فرض غيابه، وهو فرض لا يؤيده الواقع.

الفرع الثاني: رهان التعاون:

من يتصور مفهوم التعارف، ومركزيته في العلاقة بين المختلفين، يعز عليه أن يجعله ضمن الدرجة الدنيا، لثمار الحوار بين الحضارات، وإنما يشفع لهذا أن الخطاب - وهو متوجه لفارغ الذهن من موضوع الحوار بين الحضارات، وللمؤمن به، وجاحده- يستحضر أهمية التواصل مع المتلقي في حدود ضرورية، تكون هي المفتاح لما وراءها من مستويات التواصل، فلو نبدأ بالحديث عن التعاون والتحالف لخشينا أن نثير حفائظ كامنة، تنظر إلى هذه الرهانات من قاع الصراع المتأجج، فلا ترى فيها إلا سخرية كاتب حاقد، أو غبي مأجور. ومُخرَج التعارف، وغريزة الاستطلاع، يغري الإنسان ولو تعلق الموضوع بعدوه، لقبول أي وسيلة تؤدي هذا الغرض، فالعلاقة بين رهان التعارف ورهان التعاون والتحالف

(1) سعيد بن سعيد العلوي الإسلام وأسئلة الحاضر كتاب الجيب ص: 115-117.

فيما بعد، علاقة سببية، إذ التعارف بعمقه يتيح فرص التعاون، ويزيل وحشة الصدام. وعليه فلسنا في هذا الرهان بصدد خيار آخر يمكننا استهدافه نعوض به رهان التعارف، إلا إذا كان التعاون ظرفيا، أو تحت ضغط، أو كان بين حضارة مهيمنة وحضارة محتلة تسعى الأولى لاستغلال ضحيتها في بنائها الداخلي، وتسعى الثانية لاقتطاع بعض ملامح شخصيتها المستقلة عبر تعاون شكلي، يمهد لمعاملة ندية في المستقبل. وكل ما نسعى لبسطه في هذه الصفحات هو كيف نتحقق بقيم الحوار الحر، بقرار ذاتي، يأخذ أبعاده الحقيقية التي تؤدي المصالح المشتركة، ويتوقف حين يكون غطاء لهيمنة طرف واستغلال آخر؟.

بعد هذا نتوقف عند مفهوم التعاون الذي يحيل على أمرين: الأول: الحاجة إلى العون، والثاني: قدرة الآخر على تقديم ذلك العون، ثم نديل بأصالة التعاون بين المختلفين في سلوك الحضارة الإسلامية:

أولا: مفهوم التعاون:

قد أشرت إلى بعض المفاهيم المرتبطة بالتعارف كالتسامح، وأشرت لذلك الجدل الدائر حول غياب التسامح في خطاب الوحيين ولا سيما القرآن الكريم، ووفرة المادة في هذا الجانب جعلتني أكتفي بالإشارة التي أرى إمكانية أن تحمل جديدا للقارئ المهتم. لكن فيما يتعلق بالتعاون كمفهوم، فهو وإن لم يحظ بالتوطين الفلسفي اللازم ضمن العلوم النظرية، ولا يعرفله شأن في الخطاب التنظيري، فإنه في الخطاب التداولي أسرع إلى وعي الجمهور، وتعاملهم معه ميسر، ومن ثم يبدأ التفكير في حقيقة التعاون وأطرافه المتعاونة، فقدرت أن وقوفي لفك مفهوم التعاون يجلي بعض الغموض في قيمة مهددة بالانقراض، في حمأة الصدام بين المختلفين.

1 - في الحاجة إلى العون:

مفهوم العون أيضا مشكل ! حين يطرح سؤال كهذا: ما ذا يمكن أن تقدم أمة سمتها الغالبة هي الفقر، والتخلف والصراعات الداخلية، لأمة تعيش أزهى عصورها؟ ماذا يتوفر للأولى يمكن أن تمتن به على الثانية؟ وعلى ذكر المن نتذكر مرة أخرى أننا بصدد موضوعي قيمي أخلاقي يتعالى عن مصطلحات المن، وحتى التسامح الذي"يستدمج بين طياته أن هذا

الآخر في درجات أدنى ولكن أنا أتسامح معه"[1]، نحن إزاء إعادة إنتاج العلاقة الإنسانية بأبعادها الطبيعية، لا أقصد البدائية، ولكن الطبيعة الإنسانية التي تسيطر على العلم، ونتائجه، وتجعل الإنسان هدف كل تقدم علمي مهما كان جنسه وعرقه، ومهما كان وضعه الحضاري القابل للتداول بين الناس، الإنسان قبل أي شيء، إن الأمم تصاب –كما يصاب- الأفراد بتضخم الذات والأنا، بما يحجب الضعف اللازم لأي فعل إنساني من جهة، ويحجب المنفعة اللازمة المرجوة من الآخر من جهة ثانية. ولذا فالعون مشكل في مفهومه، ووفي إمكانية رؤيته، فما العون إذا؟

تلقى الدعوة إلى معاداة المهاجرين في أوروبا وأمريكا، ولا سيما المسلمين منهم، رواجا كبيرا هناك، وأصبحت وقودا لمعارك انتخابية مستعرة، ولا يتردد البعض منهم في الدعوة إلى طرد المهاجرين، ومنع الهجرة، وقد زاد خطر هذا التوجه غير المتحضر بتبنيه من جهات مسؤولة في أوروبا وأمريكا، وهنا ينكشف اللعب الرديء، فلو اقتصر الأمر على المستوى الشعبي الناتج عن تاريخ الحروب الصليبية والاستعمار، لكانت الحاجة ماسة إلى شرح العون وحاجة كل طرف إلى عون الطرف الآخر، ولكن ولوغ بعض المنتفعين في الدعوات المضطهدة للمهاجرين، يكشف عن نوايا محدودة الطموح، تعرف قبل غيرها أن المهاجرين لم يطرقوا أبواب هذه البلدان طلبا للضيافة، بل كانوا ضحايا تجارة العبيد التي لم يحاسب مروجوها، وكانوا الأدوات التي حررت تلك البلدان وأفنت زهور أعمارها في بناء أوطان قيل لهم إنها وطن ممكن[2]، وقبل ذلك فأصولهم تعود إلى البلدان التي استفرغها المحتل لصالحه. استفرغها من الموارد الطبيعية واليد العاملة الرخيصة.. والواقع الذي لا يستطيع أحد تجاوزه هو ما شرحه بريماكوف رئيس الوزراء الروسي السابق"يعيش في روسيا على سبيل المثال حوالي 20 مليون مسلم، وفي أوروبا الآن عدد كبير من المسلمين، ويعتبر الإسلام أكثر الديانات انتشارا في الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا يعني أن خطوط الانقسام يمكن أن تحدث داخل الدول، ومثل هذا الاحتمال يمثل خطورة كبيرة بالنسبة للبشرية"[3]. السؤال الذي يمكن أن يجيب عن الأسئلة السابقة هو: ما هي أمريكا وأوروبا بدون الهجرة بكل تاريخها المعروف؟

(1) حديث الإحياء أحمد عبادي مجلة الإحياء الرابطة المحمدية للعلماء المغرب عدد26 سنة 2007م. ص13.

(2) نكران الثقافات مقدمة المترجم ص10.

(3) حوار الحضارات روسيا والعالم الإسلامي ص20.

وبكلمة وسطية منصفة فالأمم في عز تقدمها الحضاري ليست نتاج منطقة جغرافية معينة مهما كانت مواردها غنية، ولا نتيجة عرق معين مهما ضرب المثل في الذكاء والنبوغ، ولا نتيجة لغة معينة مهما كانت غزيرة، الإنسانية تتقدم بمجموعها حتما، وإنما تتفاضل الأمم بقدرتها على صهر الإسهامات الإنسانية في بوتقة حضارية جامعة، ثم في رؤية إسهام كل طرف في تلك الحضارة، واعترافها به.

والحضارة الإسلامية في عز شبابها لم تكن شاذة عن هذه القاعدة، فكل من أنصف علم أن الحضارة الإسلامية –بل الخاصية القوية فيها- نتاج عقول من شتى الأمم والمناطق، وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى سنة الاعتراف بأدوار الأمم في الدعوة الإسلامية في أخبار كثيرة، فيمدح فارس بإسهامها بسلمان الفارسي صاحب فكرة الخندق الذي أنقد الله به المسلمين من كيد قريش والعرب، يقول صلى الله عليه وسلم: «لو كان الإيمان في الثريا لتناوله رجال من فارس"[1]. وأثنى على صهيب الرومي[2]. وبلال الحبشي[3]. ثم أحاديث كثيرة عن إسهام كل قبيلة عربية في بناء الحضارة الإسلامية[4]، وهذا فيه خرق للعادة العربية المترسخة التي تميل إلى أدب الحماسة والفخر الذي ينسب كل القيم النبيلة لقبيلة الشاعر.

لهذا فلا داعي للإطالة في تقرير حاصل في موضوع الانتفاع المتبادل بين الأمم والحضارات، وإنما أرجو أن ألفت الانتباه إلى أهمية الاهتمام بالبيت الإنساني، كون الأرض ومواردها واللغة وآدابها، والأديان ومذاهبها –على أهميتها- يشكل الإنسان قطب رحاها لا العكس.

ولكن مع هذه المسلمة الذهبية، نجيب عن سؤال محرج لنا نحن المسلمين، الذين ينظر إلينا عالة على أمم الأرض، في قوتنا وصناعتنا، ونظمنا، يطرح هكذا: ألا تسترون عوار الضعف والتخلف بالدعوة إلى البيت الإنساني المشترك لتشاركوا الإنسانية المعاصرة

(1) متفق عليه: البخاري: كتاب تفسير القرآن سورة الجمعة باب قول الله تعالى وآخرين منهم لما يلحقوا بهم. حديث رقم: 4615. مسلم: كتاب فضائل الصحابة باب فضل فارس حديث رقم: 2546.

(2) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي مكتبة القدس 1994م. كتاب المغازي والسير باب الهجرة إلى المدينة حديث رقم:9914.

(3) صحيح البخاري كتاب مناقب الصحابة باب مناقب بلال بن رباح مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث رقم:3544. صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل بلال رضي الله عنه حديث رقم: 2458.

(4) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس وطيء. حديث رقم: 2519.

مما كدت في تحصيله؟ ثم لا تتورعون في تمييز ما يوافق دينكم مما لا يوافقه؟ الجواب هو أن الحاجة إلينا مهاجرين أو مستقدمين، أو دولا وحكومات، حاجة لا يطالها شك، ولكننا نعترف أن نصيب إسهامنا في التقدم الحضاري الحالي ضئيل جدا إن لم يكن منعدما في بعض جوانبه، لكن لا أحد من هذه الدول التي تستقبل المهاجرين تستطيع الاستغناء عنهم أصلا، مع ما يجره ذلك الاستغناء لو حصل فعلا من مفاصلة حضارية لن تكون بالنسبة لنا أسوأ مما عشناه من حروب حضارية أخذت منا آلاف العائلات والأسر، ولا زال الصوت الغالب عندنا هو الحوار بين الحضارات، ولكن في المقابل يحتاج دعاة هذه المفاصلة في الغرب أن يتصوروا بلدانهم بغير المسلمين، ويتصوروا أنفسهم وشركاتهم، وأعمالهم بغير بلدان المسلمين !

واضح إذا أن كل أمة تملك من الطاقات النافعة للحضارة الإنسانية ما يجعل الحاجة ماسة إليها، هذا فضلا عن أن الإنسان في حد ذاته أفضل منجم للاستثمار، غير أن هذا الاستثمار سيفقد طابعه الإنساني، إذا سرقت الأدمغة والعقول وتم تهجيرها لخدمة بلدان أخرى مخلفة شعوبها تجر تاريخ الخيبة والفشل، مثل من يعيش رغد العيش مع زوجته في منتجع سياحي، وأبواه يتسولان المارة في أحد الأحياء الشعبية، دون أن يحس بوخز ضمير ! ألا يمكن أن تسمى هذه هجرة غير شرعية تقوم بها الدول العظمى؟ لا مناص من مواجهة حقائق الأرض –على طاولة الحوار بين الحضارات- والرضوخ لها وإلا انحدر المجتمع إلى شريعة الغاب، وهذا لن يصلح لأحد.

2 - موقع الضعاف من التعاون الحضاري:

إذا سلمنا للقوى الكبرى اليوم بالريادة في تسيير حضارات اليوم، وغضضنا الطرف عن الأدمغة المهجرة لصالح بلدان أخرى، (المناسب أن نقول لصالح الحضارة الإنسانية ولكن هذا يتوقف على الاعتراف بوجود جهود متنوعة لبناء هذه الحضارة)، وتوجهنا بالسؤال لشعوب الدول النامية والمتخلفة عن نصيبها في بناء الحضارة المعاصرة، فهل سنحاكمها ونحاسبها على تقصيرها بسهولة؟ ما ذا يمكن أن يكون جواب هذه الشعوب عن تخلفها عن ركب الحضارة وضعف إسهامها؟ لعل الإنصاف أن يكون الجواب دائرا حول الوضعية الداخلية لهذه البلدان، فالاستبداد السياسي، وتخلف أنظمة التعليم، والفساد الإداري، كلها أخلفت موعد هذه الشعوب بالحضارة المتقدمة، وليس هناك من يملك تغيير واقع شعب لم يقرر

هذا التغيير من تلقاء نفسه، ولعل الموضوع الآن منفتح على الواقع السياسي لهذه الشعوب، ومشروعية الانتفاض، والاستقطاب الحاد بين القوى الوطنية في هذه الشعوب، ووظائف الإعلام والدين والأحزاب والجماعات الإسلامية في هذا الوضع، وهذه كلها أوضاع لا يمكن أن تحاسب عليها طرفا خارجيا.

لكن هذه الأطراف الخارجية أبانت مرة أخرى مع موجات الربيع العربي أنها غير مستعدة لقبول سطوع حضارة كبيرة يحتمل أن تكون منافسة للحضارة المهيمنة اليوم، ولو اقتصر الأمر على الحياد، وترك الشعوب لمصيرها، لأمكن فهمه سياسيا، وإن كان المشترك الإنساني، والعلاقة الحضارية تقتضي أرقى من ذلك: إنهاض الشعب من كبوة التخلف والاستبداد وإمداده بوسائل الحياة والسير الحضاري، ثم وضع الحبل على غاربه، ليقرر أي نظام يريد وأي تحالف يختار !غير أن الحال ليس إمداد الشعب ومساعدته في النهوض، ولا تركه ليصنع مصيره بيده، بل هو توجيه سافر لموازين القوى، لصالح الظلم والاستبداد، والإقصاء الذي تنبذه شرائع الحضارة الإنسانية، فيكون الوضع إذا: الغرب يمنع شعوب العالم الثالث – خصوصا العالم الإسلامي- من أخذ مواقعها الحضاريةللإسهام في بناء المشترك الإنساني في الصناعة والثقافة والنظام، فإذا أصرت هذه الدول العظمى على كبت الشعوب والتواطؤ مع سجانيها، وتبادل التعاون معهم ضدا على مصالح الشعوب، فقادة الحضارة الغربية يمنعون غيرهم من الإسهام في صنع حضارة إنسانية مشتركة. فلم تبق القضية فقر الأطراف الأخرى في تملك العون اللازم لقيام الحضارة، ولا في إرادتها وقدرتها على الإسهام، ولكن لأن قادة العالم فضلوا أن تبقى الأرض لهم لا ينازعهم فيها أحد، إلا بقدر ما يسهم معهم فيما يسطرون من برامج البناء عبر الأدمغة المهجرة المحجوزة الممنوعة من ممارسة حريتها واختيار مستقرها.

ثانيا: أصالة التعاون في الإسلام:

سنطرح هنا سؤالا ذاتيا يتعلق بمشروعية التعاون ووجاهته في ثقافتنا الإسلامية، وأول ما يتبادر إلى دهن من يطالع سلوك النبي صلى الله عليه وسلم وخطاب القرآن حول التعاون، هو انتهاء هذا التعاون لصالح المسلمين، ولعل هذا يثير شكوكا عند غير المسلمينمن جهة، وأيضا اعتقادا عند بعض المسلمين بأن ذلك التعاون لم يكن النبي صلى الله عليه

وسلم ليقدم عليه لو لم تكن نتائجه مضمونة على النحو الذي صارت إليه؟ والحق أن ذلك كان حيلة مشروعة، ولزوم الحق والتفاني في طريقه إحدى ضمانات النجاح، نعم بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم كان النجاح مضمونا لأن ذلك الطريق الذي سلكه لا يمكن إلا أن يكون لصالح المسلمين، ولكن، هل مصلحة المسلمين في الواقع تختلف عن مصلحة غير المسلمين؟ إنه لو شعر عامة العرب من أن مصالحهم متناقضة مع الدين الجديد ما دخلوا فيه أفواجا بعد أن أسفر التعاون بين المسلمين وقريش عن وضع الحرب، ولزوم الهدنة، لقد كانت مصالح المسلمين مناقضة لمصالح بعض سادات العرب، وقادة العالم حينها في فارس والروم، الذين استمرؤوا الزعامة وأكل أموال الناس بالباطل. ولذلك فلن نفشي سرا إذا قلنا إننا ندعو إلى مبادرات تعاون،لأن دعوتنا تحتاج إلى هذه البيئة التي يسود فيها التفاهم والتعاون بين الأطراف، وتصير فيها العلاقة - كما كانت بين مكة والمدينة بعد صلح الحديبية- سلسة ومفتوحة تتيح للناس أن يتناولوا موضوعات الاعتقاد والثقافات ويكسروا حواجز الأوهام، ويختاروا أي طريق يلائم إنسانيتهم وطموحاتهم. متأكدون أن كثيرا من الأحكام الفقهية والعقدية وأحكام القيمة ستسقط قيمتها عندنا وعند غيرنا، ولكننا مطمئنون إلى أن الإسلام بأصوله سيجد في هذه البيئة أعوانا على التوسع والانتشار، ما لم يتيسر له مع قومنا الذين فعلت فيهم العادات وأوضاع التخلف العقلي والسياسي فعلها.ولذا يحسن بنا أن نتوقف ولو بعجالة عندأصالة التعاون من جهة النص أولا ثم من جهة المقاصد ومصالح الدعوة الإسلامية ثانيا:

1 - أصالة التعاون في القرآن الكريم وسلوك النبي صلى الله عليه وسلم:

جاء الأمر بالتعاون في القرآن الكريم على البر والتقوى: قال تعالى:" وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ 2"[1] والبر والتقوى يلخصان موضوع التعاون، كونه يتعلق بالدنيا والدين، وكونه يتعلق بكل ما فيه خير للإنسان وهو مفهوم البر، الذي عرفه الحديث بأنه «ما اطمأن إليه قلبك"[2]. وسياق هذه الآية من بداية سورة المائدة كله سياق تعاون، حيث تطالعنا السورة بالأمر بالوفاء بالعقود، في الآية الأولى من السورة، وفي الآية الثانية تحض المسلمين على ألا تحملهم عداوتهم السابقة على

(1) سورة المائدة الآية2.

(2) رواه مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تفسير البر والإثم. حديث رقم: 2553.

الاعتداء، بل يلزموا التعاون على البر والتقوى، هكذا يصير التعاون سلوكا حضاريا مميزا لمن ينهل من مرجعية إسلامية.

ولعل من لا يستحضر منظومة العلاقة مع الغير في القرآن الكريم، لا يفهم آيات الحرب مع هذه الدعوة إلى التعاون والوفاء بعقود المعاهدات، وحيث إن المعلوم في الفقه الإسلامي أن آيات الحرب لا تتوجه إلا إلى صنف واحد من بين أربعة أصناف غير المسلمين، هم المحاربون، فلن أطيل في هذه النقطة إلا بالتذكير بسياق واضح في رسم الحدود بين التعامل مع المعتدي والمسالم، قال تعالى: « وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ 61 «[1]. فسياق هذه الآية سياق قوم خائنين سيماهم الغدر، حيث يبدأ السياق من قوله تعالى مبينا نوع الكفار المقصودين بالسياق: « إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ55 ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ 56"[2]ويهمنا جدا أنه في هذا السياق ورد مصطلحان يستعملان للطعن في دعوة الإسلام دون استحضار هذه الدلالات الواضحات في المقصود بمثل هذه المصطلحات، المصطلحان هما الإرهاب، والتحريض، فبعدما حدد القرآن الصنف المقصود من غير المسلمين وهم الذين نقضوا العهود مرات بعد مرات، أمر المسلمين بإعداد القوة لإرهاب هؤلاء الخونة، الغادرين، في الآية الرابعة بعد السابقة، ثم في الآية الخامسة بعد هذه يدعوا القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم لتحريض أصحابه على التصدي لهؤلاء. والتحريض وإرهاب العدو ثقافة دفاعية مشروعة إذا كان العدو مشروعا، ومع ذلك فقد ضمن القرآن هذا السياق الأمر بالجنوح للسلم كلما أنس رغبة من الآخرين في هذا السلم. فهل ينتظر من الإسلام أن يمد اليد الرحيمة لمصافحة حد السيف والغدر والخيانة؟

وقد جسد نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم هذه الثقافة، حيث كان يحرص على أن يمد يد العون لأي إنجاز مشترك يستبعد الحرب، وقد استجابت بعض القبائل العربية فعلا فعقدوا مصالحات مع المسلمين، وخرجوا من مربع الصراع مع المسلمين، وقد تقرب صلى الله عليه وسلم من قريش ليعقد معهم تعاونا يقوم على صيانة المقدسات المشتركة بين العرب، ومنع الاعتداء، وكان يقول ليلة الحديبية: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة

(1) سورة الأنفال الآية:61.

(2) سورة الأنفال الآية: -55 56.

يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها"[1] والمتأمل في بنود صلح الحديبية –الذي عقد بعد ذلك بين المسلمين وقريش- لا يصعب عليه أن يدرك، التنازل الكبير الذي أقدم عليه صلى الله عليه وسلم، لإنجاز ذلك الصلح القاسي جدا على نفوس المسلمين، ولو لم تكن دعوة المسلمين بالنجاعة اللازمة التي حولت كثيرا من أطراف الاتفاق إلى معسكر المسلمين بمحض إرادتهم، أيام الهدنة، والتعايش الاستثنائي بين قريش والمسلمين، لكان هذا الاتفاق كفيلا بتأبيد سيادة قريش على الجزيرة العربية، ولا سيما البند الذي ينص على أن من جاء من المسلمين مرتدا إلى قريش ليس عليهم رده، ومن جاء من قريش إلى المسلمين راغبا في الإسلام، فالمسلمون ملزمون برده، ولكن البند الذي يعطي للتعاون أفقا واسعا، هو ذاك الذي يتعلق بحرية العرب –غير المسلمين وقريش- باختيار حلفائهم من قريش والمسلمين، ولم ينه هذا الاتفاق إلا إقدام قريش على الاعتداء على حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم،فكان واجب التعاون على رد الاعتداء أوجب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يناجز قريشا، ومع ذلك فقد كان فتح مكة بفضل روح التعاون على البر والتقوى التي مثلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، عملية دقيقة استلت عنهجية قريش وطغيانهم، دون سفك الدم، ولا انتقام شخصي كما يقع في مثل هذه المحطات التاريخية.

2 - التعاون مع الحضارات الأخرى من منظور مقاصدي:

لن نبتعد عن روح الحديبية إن أردنا أن نكون أوفياء لمقاصد الشريعة ومصالحها في العلاقات الدولية، ليس لاستحضار تلك البنود القاسية التي قبل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودلالاتها السياسية والمستقبلية، ولا لاستحضار مخرجات الاتفاق الذي كللته العناية الإلهية بنصر مبين لصالح الدعوة الإسلامية، حتى إن بعض السلف لا يسمي الفتح إلا الحديبية، كونها فتحت أبواب مكة قبل دخولها بسنتين تقريبا، حين قرعت هذه البنود قلوب كثير من قريش، ولكن أيضا لاستحضار الحالة النفسية المزرية جدا التي استقبل بها الصحابة هذا الاتفاق، وذلك لنعرض عليها نفسيات إسلامية معاصرة تتحرج من أي تقارب مع غير المسلمين، وتتوجس خيفة من أي خطوة تعاون، وتراه خطرا محدقا بالدعوة الإسلامية. وبالجملة يمكننا استحضار ثلاث مقاصد شرعية، تحملنا على مد يد العون لكل طالب للعون بشرط أن يكون لصالح العامة، حتى وإن كان فيه بعض إجحاف لطرف دون

(1) صحيح البخاري كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط حديث رقم: 2542.

طرف، لأن قضية الدعوة الإسلامية حين تفهم حق فهمها تكون هي قضية عامة الناس في الشرق والغرب، وسيأتي يوم يدرك فيه الجميع ذلك، إن أحسنا عرض القضية وأبعادها التعاونية لصالح الناس جميعا. نستحضر هذه المقاصد مرتبة حسب أهميتها، وإن كانت في مجموعها بناء مترابطا لا يستقيم بعضها دون بعض، وهي: مقصد الشهود الحضاري، ومقصد إفساح المجال لتصل دعوة الإسلام قلوب الناس جميعا، ومقصد تفريق جبهة الاعتداء على الإسلام والمسلمين في الحدود الدنيا لمقاصد الشريعة.

أ- مقصد الشهود الحضاري:

لقد ندب الإسلام أبناءه ليكونوا شهداء على الناس، قال تعالى: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ"[1]. والشهادة على الناس تستدعي أن يكون الشاهد طرفا نزيها، يرتبط بعلاقات طيبة مع كافة الأطراف، والشهادة هنا تعني - فيما تعني- التمتع بالمصداقية التي تجعل الأمم تتخذنا نموذجا في الاستقامة. وقد مثل الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده كمال الشهود الحضاري، في كل أبعاده السياسية والاقتصادية والعلمية والأخلاقية وغيرها، واحتفظت الحضارة الإسلامية بذلك الشهود في مستويات دون السياسة بعد الخلافة الراشدة، مثلها العلماء في مناظراتهم والتعامل مع الفكر المخالف، ومثلها النساك الذين رفعوا شأن الروح الإنسانية وضربوا أروع الأمثلة في معنى أن يعيش الإنسان وفق المثل العليا، ومثلها التجار المسلمون الذين حملوا الإسلام مع تجارتهم إلى أسواق العالم، فمثلوا نموذج الإنسان المستقيم، الذي يحفظ مصالحه دون الاعتداء على مصالح غيره.

والضعف الواقع الذي يمنعنا من مجرد التحدث بهذه المقامات بين الأمم، لم يكن حاجزا بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين سائر العرب الذين يمر بعضهم بالمدينة فيستخبرون أحوال هؤلاء الذي رمتهم العرب عن قوس واحدة، فيجدون أحلام الناس بالمدينة تلامس عنان العرش، وهمومهم تعانق مظلومي الأرض أينما كانوا، ولم تكن هذه الملاقاة - التي تحصل بصيغ كثيرة- لتمر على نفوس العرب دون أن تثير فيهم فضول المقارنة بين دعوة هؤلاء المستضعفين، وواقع الظلم الذي يقوده مستكبروا الجزيرة العربية. ولسنا بمنأى عن

(1) سورة البقرة الآية143.

مثل ذلك الواقع وأضعافه، حيث يختنق الإنسان المعاصر بأشيائه، وتتزاحم أمام عينيه خطابات حقوق الإنسان، مشوشة بقرع طبول الحرب، والإعلانات التجارية التي لا تتوقف عند حد.

إن التعاون باعتباره قيمة أخلاقية- وليس حنكة سياسية وحسب- يحتاج أمة تتبناه، لتثبت للحضارات القائمة على النفع المادي أن هناك أهدافا للتعاون، تتجاوز التحالفات العدائية، والاستقطابات الفردانية بين الأمم، وهذا الإثبات هو عين الشهود الحضاري، فإنه في المجتمع الذي تسود فيه الأثرة والنفعية دائما هناك من تستهويه المثل العليا، ولكنه يظل يرقب من يستطيع تحويل المثل العليا لواقع، ليقطع شكه بيقين في جدوى المثل، وفي إمكانية معايشتها على أرض الواقع، تماما كما توجد داخل الأمم المحافظة والقائمة على القيم، من ينتظر إشارة بسيطة ليفجر مكبوته النفعي الفرداني، بكل قوة قد تتجاوز قوة القائمين على مشروع النفعية الفرديةأنفسهم. فالحال ليس كون المسلمين يحملون قيم التعاون المبدئي، ولكن الشأن هنا أن الإسلام مهمته تفجير الطاقات الأخلاقية التي تضحي من أجل الكافة، وتقلب موازين النزعات الفردية التي يخيل للمرء أنها قدر الواقع المحتوم. وهذا يعطي إشارة غاية في الأهمية، وهي أن القيم النبيلة لا تكتسب شعبيتها، ومصداقيتها من كثرة المعتنقين لها- وإن كانت الكثرة تجتذب الكثرة، أي أن كثرة الأتباع فعلا هي معيار الحق عند أكثر الناس- فالدعوة إلى قيم التعاون بالصيغ المتاحة، تجمع المروءات كما يجمع شذى الأزهار أسراب النحل، وفي واقع التشرذم الذي نعيشه، يمكن لأصغر بلد وأفقره وأبعده عن الضوء في أفريقيا أو أسيا أن يتبنى مشروع التعاون المبدئي بين الأمم، ليتتابع المهتمون علميا لتقعيد قيم التعاون نظريا، ويتتابع المهتمون إعلاميا لنشر تلك القيم، ثم يبدأ آخرون في تضمينها ضمن برامج الانتخابات والحملات الجمعوية وأنشطة الأطفال، ثم تكتسب زخما يكتسح الأنانية ويحولها إلى حالات معزولة كما حولت هي أيضا هذه الروح التعاونية إلى حالات معزولة.

ولعل هناك عاملين يحسمان تردد كل متردد في جدوى هذا الشهود الحضاري، على مستوى الأخلاق عموما، وعلى مستوى التعاون خصوصا: الأول: تعب العالم من النزعات الفردية التي حولت أغلب الناس لمجرد مؤيدين ومصفقين للاعبين لا يستهدفون هدفا واضحا يعود على الإنسانية بأي نفع. الثاني: تصاعد بعض القوى في آسيا وأفريقيا التي تحاول إعطاء

السياسة عموما والتعاون الدولي بعدا إنسانيا يتجاوز الوضع الحالي «وأهمها دول منطقة بريكس (البرازيل وروسيا والهند والصين وجنوب أفريقيا) التي أصبحت قوة رائدة بعد نجاتها من الأزمة المالية الاقتصادية العالمية"[1].

ب- مقصد إفساح المجال للدعوة الإسلامية لتتعامل مع القلوب:

سيكون هذا المقصد –حسب الترتيب المقاصدي- مقصدا تبعيا، كونه يؤدي إلى الذي قبله، ومقصدية هذا العنصر متواتر في نصوص القرآن وسلوك النبي صلى الله عليه وسلم، وقد حاج الإسلام العرب بالكلمة، وهم أهل مناظرة ومحاججة، لكن الكلمة القرآنية لم تكن مجرد حجاج عقلي، ولم تكن أيضا لجاجة كيدية تضرب المخالف في أضعف منطقة، لتزيحه أمامها، لقد كانت تحرض الإنسان نفسه ليصارح ذاته في أمر هذا الدين، لقد كانت تضعه أمام معطيات كونية لا علاقة لها بقبيلة ولا شرف، ولا انتقام، رسالة سامية تمثل الحاجة العميقة للإنسان حين يصفو لنفسه وتصفوا له نفسه، وهذا الصفاء لا يمكن أن يتوفر إلا في مجتمع يسوده التعاون، فمد يد التعاون - وإن قرأه السياسيون قراءتهم الخاصة- بما يمهده من أجواء الثقة بين الشعوب، تجد فيه الدعوة الإسلامية مجالها الخصب، لتحاجج العقول، وتعانق الأرواح، وهذا كاف ليتم التعاون وينفق عليه بسخاء. فالقاعدة العامة أن الذي يتضرر من أجواء الصفو هو من يحمل مشروعا مشوشا، وبضاعة فاسدة يحتاج لتشتيت الانتباه لتمر سلعته في لحظة ذهول، هذا الذهول الذي يجعل القائمين على الحدود الفكرية والثقافية الحضارية بين الأمم، يحاصرون دعوة هي في عمقها العقدي تصديق لما جاء به موسى وعيسى والنبيئون غيرهما، وهي في قيمها لا تبتعد كثيرا عن مضامين حقوق الإنسان التي راكمتها الأمم في القرنين الأخيرين، وإلى ذلك كله هي نظرية إنسانية عامة ومجردة، تحمل من قواعد المرونة والسعة، ما يجعل اللقاء معها ممكنا جدا، ولكن أنى للرؤية المشوشة والأحكام المسبقة أن تدرك حقيقة الإسلام بعيدا عن التشويش الحاقد للخصوم والأعداء، وعن التشويه الأحمق للأبناء المغفلين.

(1) حوار الحضارات روسيا والعالم الإسلامي ص11.

مهمة صعبة، لكنها الطريق الأصوب المختصر، وجميعنا سيعترف أن الدعوة الإسلامية لا تمتد في أجواء التشويش، لأنها عميقة تحتاج إلى مقدارها من العمق الفكري لتفهم، ذلك العمق الذي لابد له من بيئة مناسبة.

ج- مقصد تفريق جبهة العداء للدعوة الإسلامية:

أعداء الرسالات الحضارية نفعيون، ونحن لسنا ملزمين بجعل الناس كلهم على وزان واحد في رؤية القيم الحضارية المشتركة بين الأمم، فمهما كان إيماننا بوجود هذه القيم في كل أمة فإن تداول السلطة في الدول الديموقراطية، وطبائع الاستبداد في الدول الأخرى، قد تجعل على رأس تلك الأمم المتحضرة، شرذمة من المنتفعين، - لا يعبرون عن العراقة الحضارية لشعوبهم- لا يتواصلون إلا عبر المصالح المادية العاجلة، فإذا كان التعاون معهم لا يضمن اقتداءهم بالمثل العليا التي تقترحها الدعوة الإسلامية، ولا يمكن أن يفسحوا الطريق لتدخل الدعوة الإسلامية إلى بيوتهم، لتتعرف عامة الشعب ويتعرف عليها، فلا أقل من أن نرمي بالتعاون في وجوه هؤلاء حتى لا يجعلوا من معاداة الدين الإسلامي نقطة التجمع العنصري، الذي يصهر عناصره في موجة واحدة، يركب عليها المنتفعون ويؤدي ثمنها المستضعفون الأبرياء. سيكون التعاون هنا نوعا من المرونة التي لابد منها، والتي لايكون بديلها إلا تصلب يعطي العدو فرصة الانقضاض، وقد مد النبي صلى الله عليه وسلم يده لأحدى مكونات التحالف العربي الأكبر في تاريخ الدعوة الإسلامية، الذي أحاط بالمدينة، في ملحمة الخندق،مد يده ليفرق جبهة الاعتداء فشاور الأنصار ليصالح غطفان على ثلث ثمار المدينة ويرجعوا عنهم، ولولا أن للأنصار رأيا رجوليا آخر لكان هذا الأمر قد تم، ولئن لم يتم ما اقترحه الرسول صلى الله عليه وسلم نزولا عند نتيجة الشورى، واحتراما لأنفة الأنصار الذين أجابوا النبي صلى الله عليه وسلم بعدما علموا أن مقترحه مجرد رأي حربي وليس من قبيل الوحي: «يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعا أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم"[1]. فقد شاء الله - ولعله منطق الأشياء- ألا تزول هذه

(1) السيرة النبوية لابن هشام 149/3.

الكربة إلا بهذه الصيغة، تفريق جبهة الاعتداء، وهي المهمة التي تحققت فيما بعد على يد نعيم بن مسعود.[1] وكأن هذا المقصد لازم لنجاح الرسالة الحضارية للأمة.

أما في واقعنا فلدينا دليل عكسي يجعلنا نتحلى بروح التعاون، مع أكبر ما يمكن من مكونات الأمم المعاصرة، فقد ضربت حركة طالبان مثلا سيئا في البلادة السياسية، وأتقنت فن تجميع جبهة الاعتداء، وكفت الولايات المتحدة التي تحشد لضربها، مؤنة ذلك التحالف، فضربت المكونات الأفغانية وألبت العرب، والفرس والأتراك، وأثارت الديانات والطوائف، وأحكمت حلقة الحصار على عنقها، ثم أعلنت أن مجلس العلماء قد قرر الدخول في حرب مباشرة مع الولايات المتحدة، لو كانت عقول القائمين على الحركة تستدير يمينا ويسار، كما يفيد المثل المغربي «الرأس لي ما يدور كدية"[2] لكان قرار العلماء بعث السفراء لكل دول العالم ما عدا الولايات المتحدة التي تزعمت الحرب، ولو تعلق الأمر بروسيا التي أهانتها أمريكا في حربها على الأفغان، لقد كانت روسيا حينها في حاجة إلى من يرد لها اعتبارها في مواجهة أمريكا أكثر من حاجتها إلى الانتقام من الأفغان الذين كانوا في جميع الأحوال يدافعون الدفاع المشروع عن بلدهم. ولكن العالم في لحظة عاطفية هائجة تحول –في نظر الشباب المتخم بنرجسية بالغة- إلى مجرد صليبيين وعملائهم، فكانت الكارثة الأفغانية التي لا زالت جروحها تنزف والله المستعان.

الفرع الثالث: رهان التحالف:

تمثل هذه الرهانات بهذا الترتيب، خارطة طريق للوصول إلى حلف إنساني يحول مجرى الإنسانية جذريا، ويملأ الأرض –حقا- عدلا بعدما ملئت جورا.. ! هل أصبحنا نهذي بخطابات دينية حالمة...؟ أيا ما كان أمرنا فالتحالف بعد التعارف والتعاون، غير مستبعد «لقد تحقق في مراحل عديدة من تاريخ الإسلام والتقائه بالحضارات الأخرى ونشأت دول مسلمة قوية تعددية –بالمفهوم الديني والعرقي والثقافي- متسامحة متقدمة، ذات إيمان عميق بجوهر الشريعة"[3]أما إن قام على أسسه الأخلاقية، ونضج في زمنه الطبيعي، فإن

(1) السيرة النبوية لابن هشام 153/3.

(2) يقال بهذه الصيغة عربيا، ويقال أمازيغيا «إخف أوريتدوارن توريريت أيكا" الرأس الذي لا يغير قراراته جبل.

(3) الإسلام وصراع الحضارات أحمد القديدي ص 55.

تاريخا جديدا ستعرفه البشرية، قد يشكل ثورة على أنماط النزعات الفردية المهيمنة على عالم اليوم. ويفتح نفوس البشرية على عوالم أخرى من المتعة الفكرية والروحية، تحل محل هذا الهوس المادي الجارف.

أسفرت الثورات العلمية، والحروب الطاحنة التي خاضتها البشرية في القرنين الأخيرين عن صيغ جديدة للعلاقات الدولية، تمثلت في اتحادات قارية، وأحلاف عسكرية، ومناطق تجارية، ومع ذلك فإن هذه التحالفات اليوم مهددة بالاندثار في أغلبها، وعادت النزعة الفردية تعمل عملها.[1] هل سئم الناس من روح التحالف والتعاون؟ أم أن التحالفات لم تتوفر على شروط البقاء في أصلها؟ عمليا لم تعد الثنائية المتوازية بين طبقة العمال والبرجوازية، تضبط توازن العمل السياسي داخل معظم الدول، وأصبح الناس طبقات من الفقراء غير متناهية، وأخرى من الأغنياء غير متناهية أيضا، لقد اختل مفهوم الفقر والغنى، وأخطر ما في هذه العلاقة انجذاب الجميع إلى المتعة المادية التي وفرتها الثورات الصناعية، واستسلم العمال والبرجوازية لمنتجاتها، وقبلوا الاستعباد دون أن يتكلفوا معرفة مصادر اللعبة وأهدافها والمستفيد منها، لقد ماتت السياسة وانبعثت المنفعة الآنية، وهذا معضل. ومن جهة أخرى فالزمن اللازم لتنضج تلك التحالفات، كان غائبا، فانتصبت التحالفات لأسباب أمنية اقتصادية، وغاب التخطيط الواعي المبني على أسس حضارية دائمة، تحترم شروط التاريخ، وخصائص الشعوب والأمم، أي أن تلك الإطارات في أصلها لم تكن سوى تعبيرا تنظيميا عن النزعات الفردية، والمصالح الآنية، لقد قامت جامعة الدول العربية –مثلا- ردا على الدولة العثمانية ذات المرجعية التركية، وسارت على هذا المنوال الأحلاف العسكرية بزعامة أمريكا وروسيا، وظل الصراع نفسه بأدوات السلم، والنزاع والتمزق بمصطلحات التحالف، لا بل قامت أحلاف كبيرة لأهداف آنية ماتت بتحقق تلك الأهداف، التحالف الدولي ضد العراق نموذجا. ولعل الغرض من طرق هذا الرهان نستطيع تأديته من خلال الوقوف عن أمرين: الأول: عند إمكانية قيام تحالف حضاري متين بين الأمم اليوم. والثاني: مطلبية هذا التحالف من منظور إسلامي.

(1) نكران الثقافات هوغ لاغرانج ترجمة سليمان رياشي ص22.

أولا: إمكانية تحالف حضاري بين الأمم:

سنتعرف على هذه الإمكانية من خلال تقييم تجارب التحالفات التي قامت فعلا بين الدول خلال القرن العشرين إلى الآن، والاعتبار بالأسباب التي جعلت بعض الأطراف فيها تكفر بذلك التحالف، فإذا كانت التحالفات - مع وجود معيقات الاستمرار- قد أدت وظائف هامة، تجاوزت مرحلة التشرذم، فنزع تلك المعيقات سيعطيها نفسا أطول للبقاء، وهذا وحده كاف ليضعنا أمام صور ممكنة لقيام تحالف أممي يتجاوز أخطاء الماضي. وأرى أن هذا التحالف بين الأمم قد أعاقته ولا تزال، أسباب موضوعية أصوغها تحت ثلاثة عناوين: الأول: من نظام الأقطاب إلى تعدد الحضارات. الثاني: من الحدود الجغرافية القهرية إلى التكتلات الإنسانية الحرة. الثالث: الفوارق الاقتصادية بين الشمال والجنوب.

1 - من نظام الأقطاب إلى عالم متعدد الحضارات:

الحديث هنا يحيل على واقع الثنائية القطبية التي أسكنت الأمم تحت سقوف الحرب الباردة، والقطبية الأحادية التي زجت بالعالم في صراعات دامية، لا تزال مخرجات هذا العنف مجهولة لحد الآن، ثم التعددية القطبية التي تتعلق بها بعض الآمال، لتذكي روحا تنافسية تتيح لأكبر عدد من دول العالم خيارات أكثر وأفضل. «فتعددية مراكز القوى بلا شك تنعكس على شكل التغيرات العالمية، التي توصف بكونها تأميم لشكل الحياة على الكوكب"[1] والرأي هنا أن نظام الأقطاب هذا كيفما كانت صيغته أبعد ما يكون عن مطلب الحلف الإنساني الجامع، إن الأقطاب مهما تعددت فالحديث بينهم سيقتصر على خدمة الأقطاب، والتنافس بينها لن يؤدي إلى خدمة الآخرين، بل هو دائر بين خيارين: الأول: تفاهم على اقتسام العالم حسب المصالح الدنيا لكل قطب، والتي لن تكون في صالح أمم الأرض إلا مصادفة. الثاني: قيام نزاع عالمي يؤدي الجميع ثمنه الباهض، والحقبة الاستعمارية قد جلت كلا الخيارين. إن أي حضارة مهما توفر لها من أسباب القوة المادية، لا يجوز أن تنوب عن حضارة أخرى في محاورة أمم الأرض وتبادل المصالح معها، والقطبية ترهن مشاعر الملايين، ومقترحاتهم، بيد حفنة من المسؤولين تكون خلفيتهم الحضارية واحدة، وبين سعيهم

(1) حوار الحضارات روسيا والعالم الإسلامي ص12.

لإثبات جدارتهم في القيادة، وتلبية طموحات أمتهم وأحزابهم، وتعبيد الطرق أمام مصالحهم الخاصة، تضيع الحضارة الإنسانية، تحت مسمى القطب الأقوى.

يلزم إذا أن يقوم الحوار حول التحالف الدولي على احترام الخصوصية الحضارية لكل شعب، وضمان حرية التعبير عن هذه الخصوصية، دون أن توزن بميزان حضارة أخرى، إلا ما كان من الاعتداء الذي ينبغي أن تنتهي عنده كل الحريات، فإذا كانت القطبية بشكليها السابقين قد صبغت العالم بصبغة معينة حتى إن كثيرا من شعوب الأرض تجشموا عناء التخلص من جلودهم الحضارية من أجل كسب الاعتراف بوجودهم في عالم تقوده القطبية، فإن تحالفا قائما على مراعاة التعدد الحضاري من شأنه أن يصبغ العالم بألوان متعددة، ويفتح عليه روافد متعددة من الثقافات والتعبيرات الإنسانية الغنية، وهذا شرط ضروري لاحترام مبدإ الاختيار الحر كما يقرر المفكر العربي عزمي بشارة.[1] وهذا أيضا يفتح نقاشنا على مفهوم العولمة التي فرضت عالما على مقاس خاص. إن وجود بعض الأفكار العالمية في كل حضارة أمر لا يرقى إليه شك، وتلك هي العولمة التي ينبغي أن تسود، ولن تسود بالقوة ولكن بإزالة الحواجز أمام التعبيرات الحضارية المختلفة، وعقل الإنسان وفطرته خبير بانتقاء تلك الأفكار واستصفائها من كل حضارة، كما عبر غاندي عندما قال: «وددت أن تمر جميع الرياح أمام بيتي دون أن يجرفني أي منها".

بقي أن نشير إلى أن هذا مطلب الشعوب المتجردة التي تنشد الخير أينما كان، ولا ينتظر من جل الحكومات التي ترث من سابقاتها ملفات مرتبطة بالقطبية أن تدعو أو تدعم تحالفا من هذا النوع، إن هذا التحالف إذا موضوع نضال واجب على كل حر يريد أن يوصل رسالته الحضارية إلى العالم، ويتوصل بالمقابل برسائل حضارية أخرى تغني تجربته الحضارية.

2 - من الحدود الجغرافية القهرية إلى التكتلات الإنسانية الحرة:

حلت الدولة الوطنية محل الإمبراطوريات الممتدة، وبدا في أول الأمر أن القضية تتعلق بحق الشعوب في تقرير مصيرها، لكن هذه الحدود الجغرافية التي رسم بعضها بطرق غير شعبية، ولا حضارية، أصبحت حاجزا حقيقيا بين الشعوب، من أجل أن تستقل أو تغير روابطها وفق خلفياتها الحضارية، وإذا كنا جميعا لا نشك في أن التحالف قوة فإن

(1) مقالة في الحرية عزمي بشارة ص8.

هذا التحالف أيضا لا ينبغي أن يفرض مقاسه ومداه، فحيثما تكتلت الشعوب، وتحت أي مسمى، فهي في النهاية قوة، لا بل إن التكتل القوي قد يفقد أسبابه ومشروعيته، فتكون القوة في تفكك هذا التكتل، وترك كل طرف يبحث له عن تكتل جديد، أو تعيده إكراهات الواقع إلى حضن التكتل الأول، إن السيادة الوطنية لا تكون إلا على شعب وأرض قرر أهلها توحيد قرارهم، عبر اختيارات حرة واضحة، فإذا كانت الدولة أو الحكومة الاتحادية تخوض حروبا عشوائية لإخضاع شعب ما لسيادة لا يختارها، فقد أصبحت الوحدة مصدر قهر، ومن جهة أخرى فإن التحالف بكل مقتضياته من التعارف والتعاون ممكن أيضا بين شعبين أو حضارتين لا يرتبطان بالحدود، فالإصرار على رسم الحدود، وإفناء الشعوب في حراستها، وإدامتها، أمر يحتاج تعديلا في القوانين الدولية المتعلقة بالحدود.وكيفما نظر إلى الموضوع من الناحية السياسية والقانونية- وهو موضوع بالغ الحساسية فعلا- فإنه من منظور قيمي حضاري، لا يلزم من استقلال كتلة بشرية عن أي دولة ألا تقوم بينهما تحالفات عميقة مباشرة بعد الاستقلال، كما لا يقتضي التحالف من أصله حدودا جغرافية مشتركة بين أطرافه، ما دامت هناك حدود حضارية بينها.

إن النزعات الاستقلالية التي تبدأ معزولة لا تثير أحدا، تتضخم حينما تجعل الدولة والإتحاد من انفصال شعب مسألة حياة أو موت، ويكبر التحدي في نفوس المناضلين، ويجدون القوى الخارجية الداعمة لأسباب مختلفة، وتصبح القضية في أروقة الأمم المتحدة، وتصدر قرارات وتصبح لها مرجعيات، ويسترزق كثيرون من عواطف الجماهير المكبوتة، فإذا بالدولة الوطنية أو حكومة اتحاد مفخخة في كل جوانبها، ولو تجنبت الدولة تخوين من يدعو إلى الانفصال،واعتبرته قرارا خاطئا، يسمح بالتعبير عنه في إطار التعددية السياسية، لما اكتسبت كثير من دعوات الانفصال زخمها الذي أذى إلى انشطار الدولة، ولو قدر أن الانفصال حدث دون تهمة بالتخوين، ولا تبادل للتهم –وهذا خيار مستبعد- فإن الانفصال لن يشكل القطيعة بين الشعبين[1]، ولن تفلح السياسة - إذا لم تدعمها خطابات التحريض والتهديد- في قطع ما كان موصولا بين الشعبين، وبعض الدول لأسباب خاصة بها يكون

(1) انفصال جنوب السودان عنه السودان مثال لسوء تدبير التعدد الثقافي، ويمكن ملاحظة عيبين في قضية جنوب السودان: الأولى أنه قائم على الصراع بين الجنوب المسيحي والشمال الإسلامي، والثاني أنه جاء بعد صراع دام 22 عاما، انتهى سياسيا 2005م. بالتوقيع على معاهدة السلام ثم تنظيم الاستفتاء 2011م. لو سمح بالاستفتاء قبل عشرين عاما لكان لصالح الوحدة، أو على الأقل لتم تفادي الدماء التي سالت.

الانفصال حلا لمشاكلها المزمنة، كما يكون الطلاق بين الزوجين حلا، إذا استحالت العشرة، ونموذج سنغافورة ماثل بين أيدينا، هل كان لسنغافورة أن تكون شيئا لو لم تفصلها –هي لم تنفصل- ماليزيا عنها؟.

3- الفوارق الاقتصادية بين الشمال والجنوب:

توجد نوايا صادقة وعزائم ثابتة وقوى حية بدول الشمال، تريد أن ترى علاقة أكثر إنسانية بين أمم الأرض، وهذا المطلب الذي لا ينبغي أن نختلف حوله يلزمه من جهة الدول الغنية استحقاق اقتصادي كبير، ليس هناك مجال للمناورة، لأن إنسان الجنوب لن يتحمس لتحالف يضعه في هامش الدنيا، فإما أن نكون حضاريين في سلوكنا وإما أن نستعد للانفجار الذي تتدفق بوادره، ولعل الآتي أسوأ ما لم تكفر الدول الغنية عن خطإ ثرائها الفاحش الذي تستعرضه أمام أنظار فقراء الجنوب، وبعض دول الجنوب الغنية غير مستثناة من هذا الاستحقاق. إن كلبا يعيش في الشمال يستهلك من الغذاء والتطبيب والتنظيف والترفيه ما يسع حيا كاملا في دول الجنوب، إن دعوات الرفق بالحيوان ستكون أكذوبة ما دام الإنسان يموت أمام الشاشات، ويذهب قوته إلى الكلاب التي هيأها خالقها لتعيش في العراء، وتأكل النفايات، وتخدم الإنسان، لعلنا أسلفنا ما يكفي من حاجة الأمم المتقدمة اليوم إلى روحانية الدين، لتستشعر إنسانيتها قبل أن تستشعر حيوانية الكلاب. صنفت بعض دول أفريقيا وأسيا ضمن البلدان الأكثر فقرا وفق تصنيف اللجنة الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة بما يصل إلى 80 مليون نسمة «نصف هذا العدد في ظروف متناهية الفقر وللأسف هذا العدد في تنام. ففي بداية السبعينات بلغ العدد 25 مليون.. وازداد إلى 39 مليون في بداية التسعينات. وبعد مرور عشر سنوات ارتفع العدد إلى 49 مليون.. وليس سرا أن ثلث هذا العدد في بلدان ذات أغلبية مسلمة"[1]

إن العلاقة بين الأمم إن لم تبن على نظرة إنسانية فيها ما يكفي من التقدير فلن يتم التحالف، وإن السلطة السياسية والاقتصادية ينبغي أن تتوزع بين الأمم بدون الحاجة إلى

(1) حوار الحضارات روسيا والعالم الإسلامي تأليف Envarbik M. Ffazeliyanov ترجمة محمد ناصر الدين الجبالي. و بدر بن عبد الله العكاش دار جامعة الملك سعود للنشر 2018م. -38 39.

الحرب، وإلا فإن الجنوب لن يبقى هادئا إلى الأبد وثرواته تسرق ثم تعود إليه منة، تراكم ديونه وخضوعه للآخرين.

ثانيا: تحالف الحضارات من منظور إسلامي:

إذا أردنا تسمية التحالف بين الحضارات باسم يمتح من حضارتنا الإسلامية، فهو: «حلف مكارم الأخلاق" مصداقا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" لقد حصر هذا الحديث الغرض من بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم في إتمام مكارم الأخلاق، والسؤال المتبادر بناء على ما ترسخ في تعلمنا من انفصال بين علوم الإسلام هو: أين العقيدة والفقه وغيرها من بعثة الرسول التي تكون جزءا أساسيا من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم؟ وهذه مناسبة للتذكير بالعقلية التجزيئية التي تفصل العقيدة عن الأخلاق، لقد شاع القول: أن فلانا صحيح الاعتقاد إلا أنه فاسد الأخلاق، وهذه الأطروحة جعلت مستوى الأخلاق دون مستوى العقيدة، ثم هي ترفع شعار: العقيدة أولا لو كانوا يعلمون. وينشغل المنشغلون بأطاريح الكلام والمعتقدات بولوغ فاضح في أعراض الناس وتشتيت صف الأمة الواحدة بمبرر: الاعتقاد أولا ياعباد الله !نذكر بهذا لنفهم أن معضلة من لا يؤمن بأصالة التحالف بين الحضارات من منظور إسلامي، هي كون الموضوع ينتمي لمجال الأخلاق المعتبرة عند بعضنا من نوافل الدين، بعد العقيدة الصلبة التي يتطاير منها الشرر وعيدا وتهديدا لكل مخالف.

عدا هذا التوجه المعشش في مجتمعاتنا–للأسف الشديد- فلا يتجادل عاقلان بله مسلمين عن أصالة التحالف بين الحضارات في الإسلام، ولا تنبع أصالة التحالف هذا من مجرد النصوص الصريحةالصحيحة، الواردة في البرور بالمخالف غير المعتدي، والوفاء بعهده، والإقساط إليه، ولكن أيضا من طبيعة الإسلام الكاره للظلم والعدوان، فلو صح أن نتحدث عن إيديولوجية إسلامية فإنها ستجد أحلافها الطبيعية في التقارب مع كل قوة تعطي للأخلاق قيمة، ولكن مع كل هذا الأساس التنظيري المتين، فقد تركت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم نموذجين شاهدين على رغبة الإسلام وإستراتيجيته المبنية على عقد تحالفات طويلة المدى مع كل ذي نية حسنة يرجى منه خير للناس جميعا. هذان النموذجان هما: حلف الفضول ووثيقة المدينة. وحيث إن الكتابة عن السيرة النبوية غزيرة، وتخصيص

هذين النموذجين بمزيد عناية الكتبة ولاسيما وثيقة المدينة، فلا أطيل بهما، وإنما أبدي ملاحظتين أرى أنهما جديرتين بالذكر هنا:

1 - دعوى نسخ العلاقات مع غير المسلمين بآية السيف:

حفل القرآن الكريم بخطاب رباني راق في موضوع السلم والحرب مع غير المسلمين، وفصلت آيته علل الحرب وحدود الرد، ومقتضيات العزة وحسن الجوار، وحماية البيضة وصون الشوكة، ونشر رسالة الرحمة، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وميز الخطاب القرآني بين طوائف المخالفين وأوضاعهم في السلم والحرب، وشرحت السنة والسيرة النبوية تلك المفاهيم بسلوك نبوي قاصد يبني ولا يهدم، ويجمع الناس على كلمة سواء، غير أن بعض الاتجاهات في الفقه والتفسير، بالغت في ادعاء النسخ، حتى قالوا «إن كل آية في موضوع العلاقة مع غير المسلمين نسختها آية السيف في براءة"[1] ورغم رفض كثير من العلماء للدعاوى المبالغةفي القول بالنسخ كالإمام السيوطي في الإتقان فقد ظل الاعتقاد السائد عند الكثير أن العلاقة مع غير المسلمين بعد براءة لا تخرج عن خياري الإسلام أو السيف. وقد اكتسى موضوع النسخ في القرآن راهنية كبيرة في العصر الحديث، على المستوى العقدي الذي يرى فيه البعض خارما من خوارم الألوهية التي لا تليق بالله تعالى، إذ يقتضي الناسخ أن يكون المنسوخ خطأ أو سهوا وهو ما لا يليق بذات الله تعالى. فتعمقوا في دعوى بطلان النسخ بما لا مزيد عليه من التكلف. وعلى مستوى الأخبار حيث بالغ آخرون في القول بالنص حتى ما كادوا يتركون آية محكمة، والحق أن النسخ موجود لا أود التفصيل فيه هنا، ولكنه موجود بقدر قليل من الآيات،وإنما يهمنا أن اجترار القول بالنسخ حمل القائلين به على اعتبار العلاقة بين المسلمين وغيرهم اليوم تتحدد فقط بآية السيف في سورة التوبة، وهي: قوله تعالى: «فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ «[2] وهذا فضلا عن تهافته سندا، فإنه يجعل سورا بأكملها في القرآن منسوخة، وهكذا نكون متعبدين بقرآن منسوخ في جانب العلاقات الدولية بآية السيف !.

(1) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي. ص 36/3. فند السيوطي المبالغة في دعاوى النسخ، ولم يعتبر الآيات التي تدعوا للبرور بالكافرين غير المعتدين في سورة الممتحنة ضمن الآيات القليلة التي نسخت بالفعل.

(2) سورة التوبة الآية 5.

2 - نهاية العمل بوثيقة المدينة:

من المعلوم أن التحالف مع اليهود في المدينة لم يبلغ نهايته، لأسباب وردت في السيرة تدور حول الغدر والتمرد على الدولة بالمفهوم الحديث، فقد خرج البطن الأول بنو قينقاع من اليهود من المدينة، بعدما تمالئوا على هتك عرض امرأة مسلمة، أعقبه اقتتال بينهم وبيم قومها من الأنصار، وخرج البطن الثاني بنو النظير بعدما هموا بمقتل النبي صلى الله عليه وسلم غدرا، ثم قتل بنو قريظة بعدما خانوا الخيانة العظمى، بالتحالف مع غزاة المدينة في أحلك اللحظات التي تقتضي فيها الوثيقة أن يكونوا يدا واحدة مع المسلمين ضدمن أرادهم بسوء[1]، ولئن تجاهلت بعض الاتجاهات خطورة الأفعال التي كانت السبب وراء انتهاء العمل بوثيقة المدينة في بنودها المتعلقة بالعلاقة مع اليهود، فإن ما لا يخفى من أسباب انتهاء العمل بهذه الوثيقة التاريخية الهامة، هو أن بعض اليهود لم تكن له نية التحالف مع المسلمين، ولم يكن التحالف إلا رضوخا للأمر الواقع، في انتظار فرصة الانقضاض على المسلمين، ولم يستطع هؤلاء التخلص من رؤيتهم وحسدهم للإسلام، حتى وصلوا بذلك الحلف الفريد إلى نهايته.ولكن انتهاء الحلف هذا لا ينهي مشروعية الاقتداء به متى توفرت إرادة التحالف من غير المسلمين، وتبقى القاعدة في التحالف كما صرح القرآن الكريم: «فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡفَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ7"[2]. وهذا هو الغرض من تخليد ذكر وثيقة المدينة.

تلك هي معالم الرهانات التي لا يملك أي مسلم وأي حامل لرسالة حضارية أن يغفل عنها، ويجند لها ما يستطيع من جهد ووقت ومال، لإنقاذ الإنسانية من مستنقعات الصدام، وسباق التسلح، والمكر المتبادل.

(1) السيرة النبوية لا بن هشام 3/-12 -125 156.
(2) سورة التوبة الآية7.

Manar al islam
islamanar.com

الفصل الثالث: آفاق الحوار بين الحضارات:

لاستطلاع آفاق الحوار لابد من التوقف عند واقعه أولا، ثم عند عقباته ثانيا:

الفرع الأول: واقع الحوار بين الحضارات:

تتسع رقعة الاهتمام والإيمان بضرورة الحوار بين الحضارات على مستوى الأديان والثقافات، وقد بلغ هذا الاهتمام مبلغا لم يبلغه من قبل فتم التواصل في الموضوع بين كثير من دول العالم، ومع اختلاف كبير في درجة الاهتمام الفعلي بحوار الحضارات، فإن الخطاب السياسي منذ بداية القرن الواحد والعشرين اهتم بالحوار بين الحضارات، ورأى فيه كثير من الأطراف المعنية بالعنف، والتطرف، مخرجا سليما من حالة الإقصاء، والانغلاق والجمود في التفكير والسلوك. وسنتوقف في هذا الفصل الختامي التقويمي عند سياق الدعوة إلى حوار الحضارات، ثم مبادرات عملية لتجاوز مرحلة الخطاب في التقريب بين الحضارات إلى مرحلة الفعل.

أولا: سياق دعوات الحوار بين الحضارات:

لعل سياق حرب الخليج وما أسفر عنه من ردة فعل جعلت كثيرا من شباب المسلمين في الشرق يكفر بالغرب وبما جاء به، في مقابل مخططات الشرق الأوسط الجديد، ومخرجات الحرب على العراق التي لم تكن منطقية[1]، وبينت –مع الاحتفاظ بحق الكويت في دفع الاعتداء- أن تدخل التحالف لم يكن له من مبرر سوى احتلال العراق، بعدما انسحب من الكويت، وتم التأكد من عدم وجود أي سلاح دمار شامل، وبدون فتح هذه الصفحة الدامية من تاريخنا الحديث، فقد خلفت هذه الحرب شروخا كبيرة غيرت وجه المنطقة تغييرا سلبيا لكل الأطراف، وعلى كافة المستويات، نوجزها في أربعة شروخ:

(1) من تجليات الازدواجية في حرب العراق أن تم غزو العراق على أساس ثلاث تهم توالدت على التوالي: تهمة احتلال الكويت، وبعد الانسحاب ظهرت تهمة امتلاك أسلحة الدمار الشامل، وبعد التقرير الأممي الذي قطع الشك باليقين بأن العراق لا يملك أسلحة دمار شامل، كانت التهمة الأخيرة وهي تهديد الجيران، للأسف جميع هذه التهم منطبقة بشكل واضح وفاضح على إسرائيل لكنها لم تحارب.

1 - شرخ اختلال التحالفات:

عزلت الثورة الإيرانية إيران عن محيطها الإسلامي ولا سيما العرب الذين توجسوا من دعاوى تصدير الثورة، وانتظم العرب وأمريكا وراء العراق الذي حارب الثورة الإيرانية لثماني سنوات، ولم تكد تنته تلك الحرب، وتبدأ الدول العربية بالانفتاح على إيران، وتبدأ إيران بتهذيب خطابها تجاه الدول العربية، حتى جاء احتلال الكويت من قبل العراق، الذي حول العراق من رأس التحالف العربي تجاه إيران، إلى رأس العدوان الذي يواجهه التحالف العالمي والعربي على السواء، وانتقدت كثير من الدول موقف الولايات المتحدة و إيران، التي أصبح لها قدم واضح في العراق، بفضل الجوار، والروابط المذهبية، ثم بفضل غياب العرب عن أي فعل مذكور في العراق، وأصبحت إيران والسعودية على رأس حلفين تستقطبان باقي الدول، ومهد هذا الاستقطاب للحرب الطائفية التي اشتد أوارها إلى اليوم، بدون ملامح واضحة.

2 - شرخ الطائفية:

كانت الأمة الإسلامية قبل حرب الخليج أقرب إلى التسامح الطائفي، وكانت لقاءات التقريب تنتظم باستمرار، للتقريب بين السنة والشيعة، على المستوى المذهبي، والذي يترتب عليه تلقائيا التقريب بين العرب وإيران، وقد اضطلع الأزهر الشريف أولا في مصر، وبعده الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين في الدوحة، بعمل ريادي، قرب أبناء الأمة من بعضهم البعض، حتى بدأ بعض رموز الطائفتين يأمر أتباع طائفته بالصلاة في مساجد الطائفة الأخرى، وبرزت شخصيات عرفت بالتقريب بين الطائفتين من أهمها عند الشيعة الشيح العلامة حسين فضل الله رحمه. وعند السنة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله. ورغم وجود الساخرين من تلك اللقاءات التقريبية ومحرضين فقد كانت تضمد كثيرا من جراحات الواقع، وكان محور الصراع واضحا بين المسلمين وإسرائيل، ولكن انحسار السنة في العراق، وضعف الحضور العربي لمؤازرة العراقيين، فتح المجال للتدخل الإيراني، وأجج هذا التدخل نفسيات بعض الشباب المضطهد في العراق، وحشرت تلك الخطابات –وانحشرت أيضا بسلوكها- الشيعة جنبا إلى جنب مع المحتل الأمريكي، وانطلقت دعاوى الجاهلية وانبعثت الخطابات التاريخية تنادي هذه بالثأر للحسين، وتنادي أخرى بالغيرة على الصحابة وأمهات المؤمنين، ولم يتمالك كثير من عقلاء الأمة نفسه فولغ في الطائفية، واسترضى الجماهير، وغاب صوت العقل، وتخندقت جل الدول بين أحد معسكري السنة

والشيعة، وتبين فيما بعد أنه صراع طائفي مختطف من طرف المشبعين بكره الغير خارج طائفتهم. وانتشرت فيديوهات توثق خطابات التكفير للعامة عند الشيعة، وللروافض عند السنة، وأصبح لزاما على كل متحدث أن يكون نصير الحسين أو يذود عن عرض عائشة والصحابة، واختفت المساحات الوسطى، وظهرت وجوه جديدة ملأت الإعلام، وشغلت الناس.

3- شرخ العنف المنظم:

خلق دخول القوات الأمريكية إلى الجزيرة العربية، زلزالا فقهيا ضرب وحدة المذهب، وتقارب الاجتهاد، وصدرت فتاوى تحرم دخول الأجنبي إلى الجزيرة العربية، بينما تصدت الأخرى لها، بجواز استعانة المسلم بالكافر على الملحد[1]، وأخذ الصراع الذي بدأ سياسيا، واقتصاديا، وعسكريا، بعدا دينيا، فأصبحت القيادة العراقيةعند بعض الشباب المتدين قيادة ملحدة في مواجهة دول مسلمة تتحالف مع الكفار. بينما تكون الصورة عند الآخرين، تحالف المرتدين مع الصليبيين لغزو الأراضي الإسلامية، ومهد ظهور حركة طالبان في أفغانستان الطريق للناقمين على مواقف حكوماتهم للتوحد هناك، فنشأ تنظيم القاعدة الذي أسس فروعا في العراق، وأفريقيا، والجزيرة العربية، ونهج نهجا صبيانيا لم يكن معهودا في تاريخ الإسلام، ولا سيما عند أهل السنة، وبدا لهذا التنظيم والملتفين حوله أنهم يستطيعون مناجزة أمريكا بهذه التفجيرات التي تستهدف جميع المصالح الأمريكية، والغربية عموما في كل بقاع العالم، واختلطت الحقيقة بالاختلاق في عمل المنظمة، وكانت وراء تدمير أفغانستان، حين أصرت حركة طالبان على عدم تسليم زعيم المنظمة الشيخ أسامة بن لادن. ولم تكد معضلة القاعدة تخفت حتى بدت منظمة داعش التي وحدت شعور العالم في شرقه وغربه، بالفظائع التي يرتكبها إرهابيو التنظيم أمام الكاميرات، لكن شعور المسلمين أصبح عرضة لصدمات من التناقض، بين جرائم الغزو الأمريكي في العراق، وبين سماحة الإسلام التي تأبى أفعال هذه التنظيمات، ولم تكن البلاد العربية مهيأة للاستقرار حين داهمتها الانتفاضات الشعبية، بدأت بدورها سياسية مطلبية، ثم ركبتها الطائفية، والعنف المنظم، بعدما صدتها الثورات المضادة، كل هذا كان لهيبا لتلك الشرارة التي أطلقها حرب الخليج.

(1) قعد هذا التوجه الشيخ ربيع بن هادي المدخلي من السعودية في كتابه: صد عدوان الملحدين وحكم الاستعانة عليهم بغير المسلمين. مطابع الجامعة الإسلامية 1411هجرية.

4 - شرخ الفوضى الداخلية:

لقد خلفت الحرب على العراق فظائع يصعب تجاوزها في المدى المنظور، بل التاريخ يتوقف عندها كثيرا، فقد مثلت بالنسبة للكثيرين تدشين مرحلة جديدة من صراع أريد للعالم الإسلامي أن ينخرط فيه، ومع تلك الرغبة في السيطرة على موارد النفط، وعزل أي خطر يهدد إسرائيل، وضبط إيقاع التطور الذي يمكن أن يشب عن الطوق في العالم العربي في أية لحظة، فقد كانت البيئة مناسبة لحدوث تلك الفوضى التي خلفتها الحرب على العراق، سواء داخل العراق أو داخل كثير من الدول التي اختلفت مكوناتها تجاه الحرب على العراق، وأظن أن هناك سببين هيئا الظروف المناسبة للفوضى في العراق وفي سائر البلدان العربية التي غرقت في الفوضى بعد ذلك:

أ- غياب الحكم الرشيد: وارتباط الدولة بالشخص الواحد، وضعف مؤسسات الدولة.

ب- غياب روح الحوار والتفاهم بين مكونات الشعب الواحد:

فقد كان الجميع خاضعا بقوة السلطة، ولم تكن القناعة بحسن الجوار والتعايش بين المختلفين قد عرفت طريقها للقلوب، وفي الوقت الذي كان مناسبا أن تتجمع أطراف المجتمع للتفاهم حول مستقبل البلد، كان كل طرف يظن أن قد وجد الفرصة المناسبة للقضاء على عدوه من الطائفة الأخرى، دون أي حساب.

وقد تجلت جريمة الحرب على العراق –حسب الدكتور المهدي المنجرة- في مظاهر خمسة:

- قتل وإهانة الإنسان العراقي.

- الاعتداء على الطبيعة.

- الاعتداء على الثقافة، وتدمير المتحف العراقي وتهريب الآثار.

- الاعتداء على مشاعر الملايين من المسلمين بتدنيس أرضهم.

- الاعتداء على القانون الدولي.[1]

هذه المظاهر قابلها عنف طائفي اتخذ تفجير الأسواق الشعبية، ووسائل النقل، والمساجد، والأضرحة، وسيلة للتعبير عن حقده.وفي سياق مظلم كهذا لا تسأل عن تمييز بين أتباع الطائفة المعادية، فيكفي لباسه، أو لكنة كلامه، أو طريقة أداء شعائر دينه، أو وجوده في مكان معين، لإدانته وقتله في أقرب فرصة. وهكذا وجد هذا العنف صداه لدى الجالية المسلمة، في الغرب، ولدى الجماعات المتطرفة ضد الإسلام هناك، والتي استغلت كل هذه الظروف لتعبئة الرأي العام الغربي ضد المسلمين. فتبين أن العنف له أسباب موضوعية، لا بد من معالجتها، ليمكن عزل الحالات التي يكون فيها العنف وسيلة واعية لقضاء أغراض سياسية واقتصادية معينة، وتلك المعالجة لا تكون إلا باجتثاث أسباب العداوة والحقد، وتدريب المتلقي على التمييز بين المدان والمتهم في الجرائم التي ترتكب باسم الحضارات.

ثانيا: مبادرات راشدة للحوار بين الحضارات:

أسفرت هذه البيئة التي أشرنا إليها عن تبلور قناعات جادة لتجاوز حالة الصراع، ولتدارك ما يمكن تداركه من مخلفاته حتى لا يصبح الوضع كما قال المثل العربي: «أنج سعد فقد هلك سعيد"[2]. وفيما يلي عرض لأهم ما اطلعت عليه من مبادرات تخدم حوار الحضارات، دون أن تغيب عنا مبادرات جزئية ومحدودة تقوم بها كثير من الجهات في مختلف دول العالم، ولكن ما نسجله هنا، هو ما يبدو بأهمية يستحق تأريخه والتنويه والاقتداء به:

1 - إعلان الأمم المتحدة سنة 2001م سنة الحوار بين الحضارات.[3]:

أول عمل كبير يثير اهتمام المتتبع، وقد انخرطت دول ومنظمات في إنجاح هذه المبادرة وعلى رأس المنظمات في عالمنا الإسلامي المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

(1) المنجرة المهدي الحرب الحضارية الأولى. ص -64 65.

(2) مثل عربي يضرب لتلاحق الشر. لسان العرب أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور دار صادر 2003م. حرف السين مادة سعد.

(3) حوار الثقافات والحضارات لمواجهة العنصرية عبد العزيز بن عثمان التويجري. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. إيسيسكوا ط:2016م. ص14.

2 - مبادرة تحالف الحضارات التابعة للأمم المتحدة:

والتي اقترحتها تركيا واسبانيا سنة 2004م. وتبنتها الأمم المتحدة، وهي أبرز عمل لمنظمة الأمم المتحدة في الموضوع حتى الآن. اختيرت 20 شخصية من مختلف الدول والتخصصات لتسيير المبادرة، وعين القطري ناصر عبد العزيز الناصر الممثل الأسمى لها. ومقرها نيويورك، ثم أسست لها مجموعة الأصدقاء فانخرطت فيها معظم دول العالم، ومنها الدول العربية التي انخرطت بأغلبها. ولكل دولة عضو ممثل داخل المبادر يسمى نقطة اتصال، يعقدون اجتماعا تمهيديا للمنتدى السنوي. أهم أنشطتها ثلاثة:

أ- المنتدى الدولي السنوي:

انتظم عقده حتى سنة 2016م. حيث انعقد الأول منه سنة 2008م. في مدريد بإسبانيا. وعقد الثاني باسطنبول في تركيا سنة 2009م. والثالث في ريو دي جانيرو بالبرازيل سنة 2010م. والرابع في الدوحة في قطر سنة 2011م. وهي الدولة العربية الوحيدة التي استضافت هذا المؤتمر حتى الآن. الخامس في فيينا في النمسا سنة 2013م. السادس في بالي بأندونيسيا سنة 2004م. والسابع في باكو بأدربيجان سنة 2016م.

ب- برنامج الزمالة:

يعنى بالطاقات الشابة من الدول العربية وأوروبا وأمريكا وكندا، قصد تعويدها على التعامل مع الآخر المخالف بروح حضارية متسامحة. وتكوين صورة إيجابية صحيحة عن المجتمعات الأخرى.

ج- المدرسة الصفية بإحدى الجامعات البرتغالية للشباب في الموضوع.

3 - جهود دولة قطر المتفردة عربيا ودوليا في موضوع حوار الحضارات، حيث أسست:

أ- مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان:

والذي انتظمت أنشطته منذ التأسيس حتى اليوم، انبثقت فكرته عن المؤتمر الأول لحوار الأديان بالدوحة سنة 2003م. وتوالت بعده المؤتمرات السنوية في قطر، قبل أن يؤسس المركز سنة 2007م. مشكلا من مجلس إدارة، ومجلس استشاري عالمي من علماء الأديان السماوية الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام، ثم صدر قرار أميري بالموافقة على

إنشاء مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان، والذي يهدف إلى دعم وتعزيز ثقافة الحوار بين الأديان، والتعايش السلمي بين معتنقي الأديان، وتفعيل القيم الدينية لمعالجة القضايا والمشكلات التي تهم البشرية.[1] وأهم أنشطته البارزة:

• المؤتمر السنوي الذي انعقدت دوراته طيلة ثلاث عشرة سنة من عمر المركز، انعقدت الدورة الثالثة عشرة هذه السنة 2018م. بالدوحة ببرنامج حافل وأوراق بحثية تمحورت حول الأديان وحقوق الإنسان.

• مجلة «أديان" مجلة بحثية علمية محكمة تصدر نصف سنوية صدرت منها لحد الآن 10 أعداد آخرها صدر السنة المنصرمة مايو 2017م. موضوعه الهجرة.

• النشرة الدورية تعنى بأخبار المركز وأنشطته، صدر منها لحد الآن العدد الحادي عشر، يوم 2018/03/22م.

• جائزة الدوحة العالمية لحوار الأديان، تهدف لدعم وتشجيع جهود الأشخاص والمؤسسات التي كان لها أثر بارز في تعزيز الحوار وترسيخ ثقافة السلام.

ت- اللجنة القطرية لتحالف الحضارات:

وهي لجنة تابعة لوزارة الخارجية تقوم على دعم وتشجيع الأنشطة المتعلقة بالحوار بين الحضارات:

• على المستوى الداخلي القطري، حيث حددت جوائز تقديرية لتحفيز طلاب الثانوية للعمل والإبداع في موضوع التواصل الحضاري.

• على المستوى العالمي: رصدت جائزة عالمية هذه السنة لأحسن مؤلف حول الحوار بين الحضارات.

4 - مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز العالمي لحوار الأديان (كايسيد):

(1) موقع مركز الدوحة لحوار الأديان: http://www.dicid.org 25/مارس/2018م.

تأسس 2007م. برعاية سعودية. أسس المنصة الدائمة للحوار بين الأديان في النمسا، 27/ فبراير 2018م. بين السعودية وإسبانيا والنمسا، ويحضر فيه الفاتكان بصفة مراقب. لم تنتظم أنشطته لحد الآن، رغم أهميته لكثير من منكري الحوار بين الأديان والحضارات، ممن يصدرون عن المرجعية السعودية في الفقه والاعتقاد، فنجاح المركز يمكن أن يصالحهم مع فكرة الحوار عموما، والحوار بين الحضارات خصوصا.

5 - إعلان الأمم المتحدة سنة 2010م. سنة التقارب بين الثقافات:

وفي رسالة لمديرة اليونسكو اعتبرت هذا التوجه «النزعة الإنسانية الجديدة". وقد تكلفت منظمة اليونسكو بتطبيق برنامج الأمم المتحدة لهذه المبادرة[1].

6 - منتدى كوالالمبور للفكر والحضارة بماليزيا:

تأسس عام 2014م. من قبل مجموعة من القادة والمفكرين الإسلاميين، يقوم بأنشطة متنوعة طيلة العام، ويعقد منتدى سنويا، يضم أوراقا بحثية في موضوع معين، يتعلق بوضع العالم الإسلامي. واستضافات لقادة سياسيين ومفكرين وعلماء، كما يضم جائزة لكبار الباحثين بالمنتدى. انتظمت أنشطته منذ نشأته إلى الآن. ويعقد دورته الرابعة باسطنبول بتركيا أيام -13 -14 15 أبريل 2018م. تحت عنوان: الانتقال الديمقراطي الأسس والآليات. وماليزيا في حد ذاتها نموذج للتعايش الحضاري السلمي، والتنوع في ظل الوحدة الوطنية الجامعة.

وتوجد أعمال مشتركة بين الأمم، كالمهرجانات الثقافية، ومؤتمرات المناخ، واختيار بعض المدن عواصم للثقافات العالمية، والأعمال الثنائية مع الدول الكبرى لاسيما ذوات الحضارات العريقة، والأهمية الاقتصادية، كالصين التي دشنت حركية فاعلة في علاقتها بالدول الإسلامية، وخاصة العربية، ومهما كانت درجة الحسابات الاقتصادية مع الصين واليابان وغيرها من الدول الصاعدة، فإن ذلك يؤدي في نهاية الأمر إلى تلاقح وتقارب، حضاري. وهل تلاقحت الحضارة الإسلامية بجل الحضارات إلا عبر التجار؟ جميعها وسائل

(1) التويجري حوار الحضارات والثقافات ص18.

جيدة للتقارب بين الشعوب، لكن بعض هذه المبادرات والإسهامات تعوقها عقبات إما ذاتية وإما موضوعية، وسنجمل هذه المعيقات في الفرع الموالي.

الفرع الثاني: معيقات الحوار بين الحضارات:

قيمة الحوار مثلها مثل قيم كثيرة لا مجادلة في الإيمان بها، ولكن أوضاع بعض الجهات تحملها على تحوير هذه القيم، وعرقلتها، أو إفراغها من مضمونها، ومن جهة أخرى فالواقع المكفهر يثقل خطى المؤمنين بالحوار، ويعصف في لحظة، بما شيدوه في سنوات، فانفجار واحد في إحدى مطارات أوروبا، يتناوله الإعلام على أنه إرهاب إسلامي، ومن ثم يحشر المسلمون في قفص الاتهام، وتبدأ محاكمتهم على الهوية، ويتعسف المحللون في ربط الانفجار بسحنة المسلمين، وبالحجاب، واللحى، وهي كلها نوايا سيئة، أو رعونات نفس خبيثة، ومن أجل تقريب هذه العقبات نتوقف عند عقبات داخلية تهمنا معالجتها نحن المسلمين وحسب، ثم نعرج على العقبات الخارجية، التي تُعَقّد مهمة القيام بما يلزم لمعالجة وضع المسلمين على العموم فيما يتصل بقبول الآخر والتعايش معه بسلام.

أولا: العقبات الداخلية (الذاتية) للحوار بين الحضارات:

لعلنا أشرنا بما فيه الكفاية لخطاب القرآن الكريم الذي يحض على التقارب مع غير المسلمين، أساسا من أجل التعارف، ثم من أجل التعاون على البر والتقوى، وتجنب الإثم والعدوان، ثم أرشدنا سلوك السنة والسيرة النبوية أن التحالف ممكن بين المسلمين وغيرهم، ومع ذلك فإن العقل المتلقي لا يقبل رسائل القرآن إلا وفق المدرسة التي تكون فيها، وهذا يؤكد ضرورة العناية بالمراجع الدراسية، وضرورة أن يتصدى أكابر العلماء لتعليم الشباب ومصاحبتهم، وفتح أعينهم على سياقات القرآن المتعددة، والاهتمام بالمقاصد الشرعية التي أثلها علماؤنا رحمهم الله. وإلى جانب هذا الفهم السيئ للقرآن الكريم، والسنة النبوية، توجد في عالمنا الإسلامي أنظمة أولويتها ليست الحضارة الإسلامية، ولا التعايش بين الناس، ولكنها أولويات سياسية، تتعلق بأغراض كثيرة كالتوسع، والهيمنة على باقي الدول، والانتصار للطائفة، وخلق القلاقل بين مكونات الأمة ليصفو لها المجال، ولذا يلزمنا الحديث عن العقبات الفكرية والعقبات السياسية في التمكين لحوار بين الحضارات في بلادنا:

1 - العقبات الفكرية:

تتعلق هذه العقبات بمنهج التعلم الذي اختارته بعض الدول، والقائم على الصراع بين كل مختلفين، صراع بين الفقهاء وأهل الحديث، وصراع بين السلف والخلف، وصراع بين النصوص وأصول الفقه، وصراع بين الاتجاهات العقدية التي تقرر ألامجال في دائرة الفرقة الناجية لمن لم يسلك مسالكهم، كل هذه التقابلات الفارغة أرخت بظلالها على التعامل مع كل مختلف، فالحوار بين الحضارات بالنسبة لهذه المنهجية يمكن أن يصنف ضمن دائرة الزندقة أو قريبا منها، وقبل تفصيل هذه العقبات فالمتصدي لحوار الحضارات ينبغي ألا يستفزه عذل عاذل من هذا التيار الذي مكن له في كثير من البلدان الإسلامية بالمال والنفوذ، كما قرر الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وزير الأوقاف المغربي السابق، في مقدمة كتابه «ظل الله"[1]، وهذا تفصيل لبعض هذه العقبات الفكرية:

أ- منهجية الثبوت والصحة:

ويقصد بها أن ما لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فعله أو الأمر به أو الإقرار عليه، فلا يؤخذ به، مهما كانت مضامين النصوص، والعادة التشريعية أو ما يسمى روح التشريع يقتضي ذلك، وهذا يطرح جانبا كبيرا من الدين والدنيا، وهو المتروك الذي لم يرد فيه أمر ولا نهي، فهذه المنهجية قد خلصته للمنهي عنه دون وجه حق، وقد ألف العلماء في الترك النبوي يعالجون هذه المسألة من موقع أصولي[2].

ب- العقلية الإخبارية:

أخبار الوحي من قرآن وسنة هي صميم حضارتنا، ومفخرتنا بين الأمم، ولا تستطيع أمه أن تجد كتابا متداولا له من العمر والموثوقية ما للقرآن الكريم ومصادر السنة، ولكن العمل الجبار في جمع المصحف ونشره، وجمع الأحاديث النبوية وتدوينها وتصنيفها كلها عمل كفانا السابقون مؤونته، والذي يطلب اليوم هو استثمار هذه الثروات لمواجهة الواقع المتجدد، وبجملة: انتهت مرحلة الرواية، وبقيت مرحلة الدراية، ومع هذا فبعض عقولنا تشمئز من

(1) ظل الله عبد الكبير العلوي المدغري2003/ المغرب. ص-13 -14 15. بدون ذكر اسم المطبعة

(2) ممن ألف فيها سيدي عبد الله بن الصديق الغماري المغربي في رسالة سماها «حسن التفهم والدرك لمسألة الترك" متوفرة على الشبكة، ولم أعثر منها على نسخة مطبوعة.

الاجتهاد، والتحليل الفكري وترى فيه تجرءا على الله تعالى، وعلى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم. وانتشرت المقولات المؤيدة لذلك بما لا مجال لإثارته. ولكن النتيجة هي أن المشبعون بهذه المناهج يصدمون في كل مرة بالواقع المتجدد يتجاوزهم، فإذا بهم يطلقون مرحلة جديدة من المراجعات الفقهية، وهي ليس مراجعات، لأن الأصول عندهم منعدمة أساسا أو غير مراجعة، ولكنها إلى التراجعات أقرب والله المستعان.

ج- العقلية المستلبة:

بينما نعاني من تحجر في عقول المشتغلين بالعلوم الشرعية، يكون المشبعون بالثقافات الأجنبية أكثر تطرفا، يدوسون الدين والعرف والتقليد، ويهبون في حملة عاطفية هوجاء، يقولون في الثقافة الغربية ما لم تقله هي عن نفسها، ومن العجب أن هذه العقلية تقتات من تطرف العقلية السابقة كما تمدها هي أيضا بالقوت اللازم، فيستدل هؤلاء بتحجر الإسلام، وتخلف المسلمين جميعا بما تنتجه تلك العقلية الإخبارية الجامدة، ويستدل أولئك على إلحاد المتصدين للفكر، والحوار مع الأمم غيرنا، بما تعلنه هذه العقلية النزقية الطائشة[1].

د- التقليد:

بعض عقولنا لا تعاني فقط من التزام بمنهج معين لا تقيسه بغيره، لتعرف مدى صوابه من خطئه، ولكنها أيضا أشربت حب التقليد، إلى الدرجة التي يتهافت فيها الرأي بين يديها، بما يحمل من تناقضات فلا يحملها ذلك على مراجعة المنهج، والقدوات، وأخطر درجات التقليد هو فناء الشخص في قدوته، ووضع أسلحة التمييز والنقد جانبا، وبعض المثقفين يعتقد أن هذا النوع من التقليد يكون عند الصوفية وحسب، ولئن وجد عند الصوفية مقعدا ومشروطا بشروط، ومرتبطا بمجال معين، فهو عند غيرهم من دعاة الإتباع، ودعاة التحرر على السواء، تقليد لا يرتبط بمجال، ولا يشترطون له شروطا، ولا يقدمون له بمقدمات، ولا يستحي أحدهم أن يعادي الحالة الاجتماعية والسياسية ببلده، في الوقت الذي يتماهى مع حالة أسوأ منها في بلاد القدوات، وقد كلف هذا المنهج القوى اليسارية في العالم الإسلامي

(1) ينظر لمزيد من التوسع حول مشكل الاستقطاب بين التقدميين والمحافظين كتاب الدولة المدنية وإشكال الهوية الكتاب الثاني مجلة منار الهدى المغربية، كتاب جماعي: مقدمة رئيس التحريرص-5 6. ومقالة دولة المواطنة للشيخ راشد الغنوشي ص180 وما بعدها من نفس الكتاب.

خسارة شعبيتها حين حاولت فرض الإلحاد السوفياتي في بلدانها المشبعة بالعقيدة والإيمان. المشكل كما وصف بول كينيدي محقا للأسف «العالم الإسلامي يفتقد ثقافة المشروع"[1].

2 - العقبات السياسية:

توجد في عالمنا الإسلامي أنظمة ملكية وجمهوريات، وأنظمة عسكرية (هذه الأخيرة يمكن أن تقود مرحلة انتقالية وإن كان الواقع العربي لم يصدق هذه الفرضية) كما في سائر العالم، وعبر التاريخ، ولميكن أي من الظلم والعدل مرتبطا بنوع النظام السياسي. ولكنه مرتبط بطريق الحكم الذي يسلكه القائمون على الأمر، فالمشروعية الحقيقية الطويلة المدى لأي حاكم لا يمكن أن تكون إلا بقدر ما يحققه لشعبه وأمته من عدل ورخاء، غير أن كثيرا من أنظمتنا السياسية لشيء يعلمه الله ويعلمونه أيضا، لا ينفقون من الجهد والوقت والمال، لإصلاح أوضاعهم الداخلية بقدر ما يعطون، لاسترضاء الأطراف الدولية، وتقديم الرشاوى للإعلام الدولي لتزيين الصورة لدى صناع القرار الأممي،أو لإفساد أوضاع دول أخرى، بل أوضاع الأمة كلها، وكأن الغليان الواقع والمتوقع داخل بلدانهم، ليس له من حل سوى إشغاله بالأوضاع الكارثية لبلدان أخرى، وبينما يعج الشارع والإعلام بأنات الشعب في الداخل يجد القائمون على أمور الدولة الوقت لافتعال أزمات، والدخول في متاهات صراعات وحروب لا رأس لها ولا ذنب. وحيث نحاول ألا نتناول أية أزمة داخل عالمنا الإسلامي بما لا يتناسب وموضوع الكتاب، فإنني أتوقف عند سياسات تكون عقبة أمام أي تحضر في داخلنا الإسلامي فضلا عن ممارسة حوار حضاري مع أمم الأرض الأخرى، وأراها في مجالين هي الدفاع والعلاقة الخارجية، من جهة، والتعليم من جهة أخرى:

أ- سياسة الدفاع والأمن القومي:

لست مختصا في الحديث عن سياسة الدفاع، ولكني أجدني ملزما بتدوين ملاحظاتي على سياسة الدفاع لدى الدول الإسلامية فيما يتعلق بهذا الموضوع حوار الحضارات، وألخص رأيي هذا في ثلاثة عناصر أرى أنها مختلة في سياسات الدفاع، وتؤثر على تقدم جدي في ترسيخ أي حوار بين الحضارات، هذه العناصر هي: مفهوم العدو ومفهوم الشقيق ومفهوم الصديق، أرى أن الروح الحضارية تقتضي ترتيب العلاقة بناء على هذه المستويات:

(1) الإسلام وصراع الحضارات أحمد القديدي ص61.

• **مفهوم الشقيق:**

أخ لك في الدين والحضارة والجوار، لا يتوجه إليه بالسلاح، والعدوان، ولا يوجد ما يبرر مقاطعته وإغلاق الحدود دونه، مهما بلغت أخطاؤه، والأخ كما في علاقات الدم، لا تختاره، ولا تستطيع استبداله وتعويضه، وهذا فضلا عن الضعف الذي يجره على المعتدي أيضا، فإنه يقطع الأواصر الحضارية بين الشعوب، ويوقف العمل المشترك الباني للأوطان.

• **مفهوم الصديق:**

ترتبط معه بعلاقات حدودية و تجارية وأمنية وسواها، تبحث معه عن روابط حضارية قد تكون مشتركة، فأهميته محفوظة، دون أهمية الشقيق، وهاتان العلاقتان الإيجابيتان لن تكون لهما الجدوى اللازمة إذا لم تأخذ الدولة في حسبان دفاعها، العدو.

• **مفهوم العدو:**

الذي لا يؤمن بوجودك، ولا بإمكانية وجود علاقات استراتيجية معك، ولكن تدبيرا منه لمرحلة الصراع، يتوسل إليك بوسائل مختلفة، ويعرض نفسه بديلا عن كل الناس، و خطابه ليس سوى سياسة دفاعية، يعزل بعض الدول عن محيطها الحضاري الحقيقي ويرهنها في شراكه. وأنا أعتقد أن الدول الإسلامية مهما بلغت ذروة العداوات والاختلاف بينها وبين أي دولة، فإن العدو الوحيد الذي لا ينبغي أن يسمح بالتباسه بغيره هو الصهيونية، بكيانها المعتدي في فلسطين، وبأذرعها الإعلامية والثقافية والسياسية في كافة أنحاء العالم، ولست هنا مؤهلا لشرح كيفية التعامل مع هذا السرطان العالمي، ولكن كل دولة تملك ما تناوش به هذا العدو، وسيكون من أبجديات مواجهته، دعم المقاومة في غزة وسائر الأراضي المحتلة، إن لم يكن حبا في حركات المقاومة فليكن جهة متقدمة لمواجهة العدو المشترك.هذا الدعم الذي يكون بالمال، يكون أيضا بالمواقف، وتدبير العلاقات الخارجية، وجعل القضية الفلسطينية قضية أولية تتصدر السياسة الخارجية كما تتصدر قضية إسرائيل السياسة الخارجية لدول أخرى.

ب- سياسة التعليم:

كتب الناس ويكتبون في موضوع التعليم في البلدان العربية، وأصبح من المعلوم بالضرورة أن التعليم رديء جدا في معظم بلداننا[1]، ولعل أسباب فشل سياسة التعليم متعددة[2]، ولكني أقتصر فيما يتصل بموضوعنا وألخص مشاكل التعليم فيما يمس هوية الأمة الحضارية في ثلاثة مشاكل:

• مشكل اللغة:

مفتاح المعرفة، والسمة الحضارية، مهددة في بلداننا العربية خصوصا والإسلامية عموما، اللغة العربية بغزارتها، وثرائها، أصبحت سبة بسبب العجز الحضاري لأبنائها. مدارسنا تخرج أفواجا من المغتربين في بلدانهم، يستقيم نطقه باللغة الأجنبية ويتلكأ عند النطق بالحرف العربي، أعطيت للغات التي تسمى مجازا اللغة الثانية، أو المادة الاختيارية، الاهتمام الذي لم يعط للغة القرآن، ولا يخفى أن رابط اللغة ضروري لكي لا يكون الجيل لقيطا في نسبه الحضاري.

• مشكل التبعية:

فالمناهج التعليمية تبالغ في مراعاة التجارب الدولية، وتنسى أو تتناسى أن أي قيمة تعلمية لتجارب العالم لا تكون لها النجاعة في بلداننا ما لم تكن سياساتنا وطنية قومية بما فيه الكفاية، ولكن السؤال الذي يطرح ولعله يختزل كلاما كثيرا في الموضوع هو: هل يضع مهندسو البرامج التعليمية انتمائهم القومي وانتماء الأجيال في الحسبان؟ أم الهاجس هو ضمان قدم صدقلأبنائهم، وأنفسهم، في الدول الغربية؟

• مشكل التنشيط الثقافي:

أصبح التعليم مهنة شاقة تنضبط بأوقات معينة، شقي بها الطالب والأستاذ والمشرف والدولة، لم يعد التعليم مشروع الحياة الفكرية والعقلية، متنوعا بين الأدب والعلوم،

(1) مجلة البحوث الإسلامية الرئاسة العامة للبحوث والإفتاء المملكة العربية السعودية عدد 17. صفر -1416 1417هـ.

(2) ينظر أعمال مؤتمر القمة العالمي للابتكار في التعليم wis المنعقد بالدوحة -22 -11 2009م. الجزيرة نت. تاريخ الزيارة31- مارس- 2018م. الساعة19:55.

والترفيه والمكتبات، التعليم واجب يؤدى بحرفية، لا يرتبط فيه التلميذ بأستاذه خارج الحصة ببحث ولا نشاط. والمعرفة الحضارية تحتاج حلقا للحكي، ومسابقات في الكتابة والإبداع، وأجواء غنية بالعلم. جميع المهرجانات التي تقام في بلداننا تتوجه للغرائز الحيوانية تهيجها، بأسلوب رديء لا يمت بصلة إلى الثقافة والعلم، فضلا عن الحضارة. أين الجامعات الصيفية؟ أين الرحلات العلمية؟ أين تبادل الزيارات بين المؤسسات التعليمية؟ أين مسابقة جادة في الشعر والنثر والكتابة والإبداع؟ أشهد على نفسي وعلى كثير من ساكنة مراكش بالمغرب، عاصمة المرابطين والموحدين، أن جميع طلبتنا (والناذر لا حكم له)لا يعرفون شيئا عن المآثر التاريخية في هذه المدينة التي تشد إليها الرحال من جميع أصقاع العالم، وحتى من يقوم بزيارة لقصر من قصور السعديين، وأضرحة الرجال السبعة[1]، لا يعرف عنهم سوى فرصة للفسحة، وقد أصيبت مراكش بداء الانتماء الديني المنحرف، سواء من جهة الذين لا يعرفون عن ضريح رجل في قامة القاضي عياض، والسهيلي وابن تاشفين سوى مأوى البدعة والتصوف، أو من جهة هؤلاء الذين تعودوا على التمسح بالقبور دون استذكار تاريخ الرجال، واستنطاق تراثهم. أين التعليم ومؤسساته من كل ذلك؟

وبالجملة فالأمة تعاني من غياب خيارات حضارية واضحة، أو ثقافة المشروع كما أسلفنا عن بول كينيدي، وإذا تحدثت عن بلدي المغرب –والبلدان العربية متقاربة في مشاكلها- فالأمازيغيون المتطرفون لا يرون في العرب والعربية إلا غزاة[2]، ويفضلون الكتابة والحديث بالفرنسية –وهم يعلمون جرائم فرنسا ضد الأمازيغ والعرب على حد سواء- نكاية بالعرب والعربية. وكثير من العروبيين القوميين لا يحاولون تفهم مكون الثقافة الأمازيغية، وكأن الإسلام غير كاف ليجمع أبناءه في حرز واحد. وبين هذه النفسيات المتشنجة التائهة حضاريا تتسلل إسرائيل إلى مهرجاناتنا، وأنشطتنا وعاداتنا، وكأنها ملك سلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(1) ينظر الحركة الصوفية بمراكش ظاهرة الرجال السبعة حسن جلاب المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش الطبعة الأولى 1994م.

(2) ينظر نكران الثقافات مقدمة المترجم ص -15 16.

ثانيا: العقبات الخارجية (الموضوعية):

يعترض مصداقية، وجدية الحوار بين الحضارات، معيقات موضوعية، يمكننا الإشارة إليها، والتذكير بها، كونها حديث الإعلام، وليست استنتاجات مدخورة في بطون المصادر. ولعلي أصيب الحق إن قسمت هذه العقبات إلى عقبات تتعلق بالجالية المسلمة في الغرب، وأخرى تتعلق بوضع المسلمين تحت الاحتلال والقهر الأجنبي في بلادهم.

1 - عقبة التخويف من المسلمين:

يتنكر مثقفون من الغرب لمبدإ عدم التمييز على أساس الدين، حين يصنفون الناس ويستطلعون نواياهم، ويصدرون الأحكام النهائية في حقهم لمجرد لباس، أو حركة، وينتهكون الحرية الشخصية حين ينزعون حجاب المرأة، ويزرعون بذور العداوات حين يعزلون المهاجرين، اجتماعيا، ويرغمونهم على التخلي عن خصوصياتهم القومية، وهم يعرفون أنهم يمارسون كل حرياتهم في بلاد المسلمين، ويقدرون أحيانا أكثر مما يقدر أهل البلد، ومع ذلك يكون الغرب متسامحا والشرق متطرفا.. !إنه مرض قديم لم يتقدم الغرب في علاجه كما تقدم في علاج أمراض كثيرة، مع حفظ الاحترام والتقدير لقامات بارزة أنصفت المسلمين تاريخيا وحاضرا. ولعل بعض الوضوح يقتضي أن نعترف أن الغرب يعيش مشكلة داخلية حقيقية تتمثل في «في انخفاض نصيب الدول المتقدمة في الناتج الإجمالي العالمي للسكان"[1] وهذا كما قلنا راجع إلى القيم المادية التي أغرقت فيها شعوب الغرب، وبدلا من التوجه لتغيير العقلية المادية التي نفرت المرأة من مهمة الأمومة فقد أصرت على فرض رؤاها على دول أخرى، ولا يسعنا الحديث عن سياسات التمييز والإقصاء ضد المسلمين في الغرب، فقد استفاض فيه كثيرون، بل الانتهاكات لحرمات الناس في بلاد الحريات والأنوار موثقة بالصوت والصورة، وإنما الغرض هنا التنبيه على عقبة التخويف من الإسلام أمام حوار حضارات، وهذه العقبة ذات وجهين: الأول: يحجب عن جماهير الغرب رؤية الإسلام، وحضارته وعراقته، وسبقه في العلوم النظرية والتجريبية، ومن ثم قبول المسلمين، وتفهم معاناتهم، كما يحجب المسلمين عن رؤية التراكمات العلمية والحقوقية لدى الغرب. ويجلي الغرب منافقا، أنانيا، يأكل أجساد المهاجرين ويرمي أرواحهم وأفكارهم.

(1) حوار الحضارات روسيا والعالم الإسلامي ص14.

2 - عقبة الإصرار على الاحتلال والهيمنة:

لا يستطيع أن يفهم المسلم المتابع لسلوك الغرب في بلاده سوى الرغبة في السيطرة عليه عسكريا وسياسيا وثقافيا، ولئن سكت مرغما أحيانا ومتسامحا أحيانا، فإن إيمانه بالحوار مع هذا الغرب الذي لا يأتي منه خير إلا متلبسا بشر سيكون ضئيلا، وستكون العقبة أمام دعاة الحوار كأداء، ويلزمهم اعتبار هذه الندوب التي خلفتها سياسات الغرب في نفوس المسلمين. وبكلمة أقرب إلى الإنصاف فإن الكفر بحوار الحضارات موجود في الشرق والغرب على السواء، وبعض الكفر هناك تبرره الأفعال الصبيانية التي يقدم عليها بعض المسلمين يكون ضحيتها الآمنون في بلدانهم، أو في بلدان استأمنتهم على أرواحهم. كما بعض الكفر هنا تبرره جرائم الاحتلال، والدعم المطلق لإسرائيل، والتنكر لنتائج الانتخابات حين لا تحمل حلفاء الغرب إلى الحكم في بلاد المسلمين، هذا الوضع يقتضي من أطراف الحوار أن يبدلوا جهدا داخليا بالموازاة مع محاولات الحوار، ليوسعوا دائرة الإيمان به، ويلقنوا الشعوب ملكة التمييز بين المجرم والبريء من كل الحضارات.

ولعل تجربة هذه اللجنة القطرية لتحالف الحضارات التي أشرنا إليها سابقا، والتي تتوجه إلى طلبة قطر في مؤسساتهم التعليمية، مع توجهها للخارج، جديرة بالاهتمام. ومن يدري لعل بقعة الضوء التي تلمع هناك تتسع لتشمل كل الأقطار العربية، ويحل هذا التنافس العلمي الحضاري الراقي، محل التنافس العابث الذي يملأ معظم الوسائل الإعلامية العربية، يعمق أزمة الهوية، والتيه الحضاري. لقد أثبتت التجربة التاريخية أن الدعوة الإسلامية لا تنتشر بكثرة أتباعها، ولا بقوة عددهم وعدتهم، وإنما تنصر بروح الحق الذي يكتسح القلوب ويخضع العقول، ويهيأ للدعوة الإسلامية رجالا ممن ناصبوها العداء ردحا من الزمن.

Manar al islam
islamanar.com

خاتمة

هذه محاولة لمقاربة حوار الحضارات من منظور شرعي لا يبتعد عن الواقع قدر المستطاع، مهما تفرعت تفاصيلها فإنها ترتكز على مجموعة أفكار أجملها فيما يلي:

1 - الحوار خلق إنساني رفيع، ولا توجد علاقة إنسانية بدون حوار.

2 - الحوار بالنسبة لنا –نحن المسلمين - ضرورة شرعية واستراتيجية، نتقرب به إلى الله تعالى، ونعتبره المدخل الرئيس لضمان مصالحنا بين الأمم.

3 - القرآن الكريم حافل بالحوار مع كل الأطراف وبمختلف الأساليب، وبمبادئ سامية لا يجادل فيها منصف.

4 - جسدت السنة والسيرة النبوية مقصدية الحوار بين المختلفين وضرورته في أحلك لحظات الدعوة الإسلامية.

5 - الحوار ينبغي أن يستبطن خلفية واعية بمفهوم الإنسان بكافة أبعاده الروحية والعقلية والجسدية.

6 - يلزم المتحاورين حول الحضارات أن يتحلوا بالشجاعة ويفتحوا كل الملفات المتعلقة بالحوار: النظام العالمي، معضلة إسرائيل، الإرهاب، التخويف من الإسلام، الاحتلال، التدخل في شؤون الدول..

7 - يراهن الحوار بين الحضارات على التعارف والتقارب بين الأمم أساسا، وعلى التعاون والتحالف تبعا.

8 - يمكن أن يفشل الحوار أو يستحيل مرحليا في مستويات معينة، ولكن هذا لا يبرر إغلاق الحوار في المستويات الأخرى الممكنة.

9 - يتحمل قادة السياسة والفكر المسؤولية الأولى في عزوف الناس عن ثقافة الحوار.

10 - يلزم الدول العربية خاصة، والإسلامية عامة أن تهتم بسياساتها الداخلية سياسيا وعلميا واقتصاديا وعسكريا، بالموازاة مع اهتمامها بحوار الحضارات، تحقيقا لمقصد الشهود الحضاري بين الأمم.

11 - يلزم الدول الإسلامية حوار داخلي يعطي الأنظمة السياسية مشروعية تمثيلها في أي حوار مع الأمم الأخرى.

12 - لقد جربت كثير من الدول سياسات الإقصاء، وتشجيع التطرف الديني والعلماني، ولم تجن منها –والعالم - سوى الخيبة.

13 - ينبغي للخطاب الخارجي للدول الإسلامية، وصناع الرأي أن تكون مواقفهم واضحة في الاستعداد للتعاون والتقارب مع جميع الأمم والشعوب، مع الدرجة نفسها من الوضوح في رفض أن تكون إسرائيل واقعا لا يرتفع. ضمانا للنزاهة والمصداقية أمام الله وأمام التاريخ والشعوب.

وهذه الأفكار تحتاج أهدافا إجرائية تنقلها من المرحلة النظرية إلى التطبيق، ولعل الإجراءات التي تستدعيها الأفكار المتعلقة بالداخل الإسلامي، تختلف عما تستدعيه تلك المتعلقة بالأمم الأخرى، وحيث إن الموضوع أساسا يتعلق بالحوار بين الحضارات، وقد اعتبرنا الإسلام حضارة واحدة ترفدها ثقافات متنوعة، فإن ما يمكن أن نتوجه به إلى الداخل الإسلامي، هو محاربة السرطان الطائفي، عبر إعادة العمل بلقاءات التقريب بين السنة والشيعة، مع التركيز أيضا على التقريب بين السنة أنفسهم صوفية وسلفية، وحركات وأحزابا، أما ما يتعلق بالحوار بين أمم الأرض باختلاف حضاراتها، فنجمله فيما يلي:

1 - يجب التقليل من أهمية الانضمام للاتحادات المغلقة القائمة على أساسات غير موضوعية، كالعرق والدين والعدوان على الدول المستقلة.

2 - تسعى الدول المهتمة بحوار الحضارات مثل قطر وتركيا وماليزيا وإسبانيا (هذا بناء على المبادرات الحميدة لهذه الدول في هذا المجال) لتطوير مبادرة تحالف الحضارات التابعة للأمم المتحدة عبر الإجراءات التالية:

أ- تأسيس جامعة إلكترونية –بنظام التعليم عن بعد- معترف بها في الدول الأعضاء تتخصص في دراسات الحضارات.

ب- إنشاء مراكز اتصال وانتداب شباب حاصل على تأهيل علمي كاف في الحضارة والتواصل، يقوم باستقطاب السياح للاستفادة من توجيهات المراكز في التثقيف الحضاري. والإرشاد لزيارة المآثر والمشاهد الحضارية، والتعريف بالإرث الحضاري، والببلوغرافيا الحضارية للدولة المضيفة، مع احترام باقي الدول والأمم. وفي حال ما تأخر الأخذ بهذه المبادرة فإن الدول الإسلامية تستطيع تقديم خدمة للإنسانية بالتعريف بالإسلام عبر مراكز كهذه.

ت- تشجيع الجامعة الصيفية التي دأبت مبادرة الأمم المتحدة على تنظيمها بالمجتمعات البرتغالية، وتطويرها لتصبح قافلة دولية للتعريف بالحضارات.

ث- إنشاء قناة تلفزيونية مختصة بالحوار والتعريف بالحضارات. بلغات مختلفة.

ذلك وإنما الموفق من وفقه الله. والغيث أوله قطرة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

Manar al islam
islamanar.com

لائحة المراجع والمصادر:

حرف الألف:

1 - الموافقات في أصول الشريعة أبو إسحاق ابراهيم بن موسى الشاطبي. تحقيق عبد الله دراز. ومحمد عبد الله دراز. منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية 2004م. بيروت لبنان.

2 - العرق والتاريخ كلود ليفي شتراوس ترجمة سليم حداد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.ط 1997م.

3 - الإسلام في يوغسلافيا من بلغراد إلى سرايفو محمد الأرناؤوط. دار البشير عمان 1993م.

4 - الدولة المدنية وإشكال الهوية الكتاب الثاني من إصدار مجلة منار الهدى المغربية. دار القلم. ط2011م.

5 - الإسلام وأسئلة الحاضر: سعيد بن سعيد العلوي. منشورات الزمن مطبعة النجاح الجديدة البيضاء 2001م.

6 - الحق العربي في الاختلاف الفلسفي طه عبد الرحمن. المركز الثقافي العربي ط الثانية 2009م. المغرب.

7 - الربيع العربي وأسئلة المرحلة كتاب منار الهدى المغربية 2012م. المغرب.

8 - الدين العلماني عبد الكريم سروش تعريب أحمد القبانجي. مؤسسة الانتشار العربيط2009م. بيروت لبنان.

9 - المجتمع الإسلامي في مواجهة التحديات الحضارية الحديثة. أبو بكر القادري سنة النشر1998 المغرب بدون ذكر اسم الطبعة.

10 - الإسلام والحداثة عبد السلام ياسين دار الآفاق الطبعة الأولى مارس 2000م. المغرب.

11 - الحوار أفقا للفكر طه عبد الرحمن الشبكة العربية للأبحاث والنشر الطبعة الأولى 2013م. بيروت.

12 - الحرب الحضارية الأولى المهدي المنجرة مكتبة الشروق. الطبعة العربية السابعة 1995م. القاهرة مصر.

13 - النقد الذاتي علال الفاسي منشورات مؤسسة علال الفاسي. الطبعة الثامنة 2008م. المغرب.

14 - إسرائيل والعرب حرب الخمسين عاما.بريغمان أهرون. جيهان الطهري. ترجمة سالم سليمان العيسى مراجعة وتدقيق: إسماعيل الكردي. الأوائل للنشر

15 - المشترك الإنساني نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب. راغب السرجاني. مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة. الطبعة الأولى: 2011م. القاهرة مصر.

16 - التصرفات النبوية السياسية دراسة أصولية لتصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بالإمامة. سعد الدين العثماني. الشبكة العربية للأبحاث والنشر. الطبعة الأولى 2017م. بيروت.

17 - الحوار الحضاري بين المسلمين والفرنج في عصر الحروب الصليبية محمد سالم بكر با عامر. مركز النشر العلمي جامعة الملك عبد العزيز الطبعة الأولى 2010م. جدة. السعودية.

18 - الورثة الصالحة للحضارة المعاصرة بحوث قرآنية في الحضارة. فاروق حمادة. دار الثقافة للنشر والتوزيع. 1990م. الدار البيضاء المغرب.

19 - الإسلام السياسي في الميزان الحالة المغربية. حسن أوريد. ترجمة المؤلف من الأصل الفرنسي. مطبعة المعارف الجديدة الرباط 2017م.

20 - القضايا الكبرى. مالك بن نبي. دار الفكر المعاصر بيروت – دار الفكر دمشق. التنفيد الطباعي المطبعة العلمية دمشق. 1991م.

21 - الحركة الصوفية بمراكش. ظاهرة سبعة رجال. حسن جلاب. المطبعة والوراقة الوطنية. الطبعة الأولى 1994م. مراكش.

22 - الإسلام وصراع الحضارات أحمد القديدي سلسلة كتاب الأمة رقم 44. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية الطبعة الأولى 1995م. الدوحة.

23 - الدولة اليهودية ثيودور هرتسل نسخة بصيغة pdf. بدون ذكر الناشر ولا تاريخ النشر.

24 - التفسير الكبير أبو عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي. دار الكتب العلمية 2004م. بيروت.

حرف الدال:

25 - ديوان المتنبي أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي. الزهراء للإعلام العربي. 2004م.

حرف الهاء:

26 - هروبي إلى الحرية. إلى عزت بيكوفيتش. ترجمة محمد عبد الرؤوف. مراجعة وتقديم شكري مجاهد. مدارات للأبحاث والنشر الطبعة الثالثة 2017م.القاهرة.

حرف الحاء:

27 - حكمة الشرق وعلومه دراسة العربية في انجلترا في القرن السابع عشر ج1. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. ط 1017 الكويت.

28 - حوار الثقافات والحضارات لمواجهة العنصرية. عبد العزيز بن عثمان التويجري. منشورات للتربية والعلوم والثقافة. إيسيسكوا 2016م. الرباط المغرب.

29 - حروب قذرة ميدان المعركة: العالم. جيريمي سكاهيل. ترجمة سعيد محمد الحسنية. شركة المطبوعات للنشر والتوزيع الطبعة الأولى 2016م. بيروت لبنان

30 - حوار الحضارات روسيا والعالم الإسلامي Envarbik M. Fazeliyanov ترجمة محمد ناصر الدين الجبالي - بدر بن عبد الله العكاش. دار جامعة الملك سعود. 2018م. الرياض.

حرف اللام:

31 - لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور. مطبعة صادر بيروت لبنان.

حرف الميم:

32 - معجم مقاييس اللغة أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر ط:1979م.

33 - مجلة الإحياء العدد 26. الرابطة المحمدية للعلماء المغرب. نونبر 2007م.

34 - مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها. علال الفاسي منشورات مؤسسة علال الفاسي الطبعة الخامسة 2005م.

35 - مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها. علال الفاسي. منشورات مؤسسة علال الفاسي الطبعة الخامسة 2008م. المغرب.

36 - مقالة في الحرية عزمي بشارة. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات الطبعة الأولى 2016. بيروت.

37 - مجلة التسامح السنة السادسة. عدد 24.وزارة الأوقاف والشؤون الدينية سلطنة عمان. مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان.

38 - مشروع السلام الدائم كانط. ترجمة عثمان أمين. مطبعة الأنجلو المصرية الطبغة الأولى: 1952م. القاهرة مصر.

39 - مقدمة ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد بن خلدون. تحقيق عبد الله محمد الدرويش. دار يعرب الطبعة الأولى 2004م. دمشق.

40 - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. أبو الحسن الندوي. مكتبة الإيمان. المنصورة مصر. بدون سنة الطبع.

41 - موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية عبد الوهاب محمد المسيري دار الشرق 1999م. القاهرة.

42 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي. مكتبة القدسي. 1994م.

حرف النون:

43 - نكران الثقافات هوغ لاغرانج ترجمة سليمان رياشي. مراجعة: أخمد مراد وسعود المولى. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. الطبعة الأولى: 2016م. بيروت.

حرف العين:

44 - عولمة العولمة: المهدي المنجرة منشورات الزمن ط2000/ المغرب.

حرف الفاء:

45 - في معركة الحضارة: قسطنطين زريق دار الملايين بيروت ط الثالثة 1977م.

فلسفة الحضارة ومعنية المجتمع والعلائقية علي زيغور مؤسسة عز الدين 1994. بيروت لبنان.

45 - في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. طه عبد الرحمن. المركز الثقافي العربي. الطبعة الثانية 2000م. الدار البضاء المغرب.

حرف الظاء:

46 - ظل الله عبد الكبير العلوي المدغري 2003م. المغرب بدون اسم المطبعة.

حرف الراء:

47 - رحلة ابن بطوطة. تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار محمد بن عبد الله بن محمد ابن بطوطة.تحقيق محمد عبد الرحيم. مؤسسة الكتب الثقافية. الطبعة الأولى 2003م. بيروت لبنان.

48 - رواء مكة حسن أوريد مطبعة المعارف الجديدة 2017م. الرباط.

حرف الصاد:

49 - صحيح البخاري أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري دار الفكر للطباعة والنشر 1995م.

50 - صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي. صامويل هنتنكتون ترجمة طلعت الشايب تقديم صلاح قنصوه مؤسسة سطور الطبعة الثانية 1999م.

حرف التاء:

51 - تفسير البغوي الحسين بن مسعود البغوي دار طيبة بدون سنة النشر.

52 - تفسير الطبري محمد بن جرير الطبري دار المعارف بدون ذكر سنة النشر.

53 - تأثير الإسلام في أوروبا العصور الوسطى. وليام مونتغمري واط. ترجمة سارة إبراهيم الذيب. مراجعة سحاب الأحدب. جسور للترجمة والنشر الطبعة الأولى 2016م. بيروت لبنان.

54 - تدهور الحضارة الغربية. أسوالد أشبنغلر ترجمة أحمد الشيباني. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت لبنان. بدون الإشارة لسنة النشر.

- حرف الشين:

56 - شرح النووي على مسلم يحيى بن شرف أبو زكرياء النووي دار الخير طبعة 1996م.

57 - شرح المعلقات السبع أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بدون ذكر تاريخ الطبع والنشر.

58 - شروط النهضة مالك بن نبي ترجمة: عبد الصبور شاهين و عمر كامل مسقاوي.
دار 59 - الفكر للطباعة والتوزيع والنشر1986م. دمشق سورية.

Manar al islam
islamanar.com

فهرس المحتويات

مقدمة 7
مدخل تمهيدي: 9
أولا: مفهوم الحضارة: 9
ثانيا: مفهوم الحوار: 13
-1 الأساس المهني للحوار: 14
-2 الأساس الأخلاقي للحوار: 16
ثالثا: مفهوم المركب الإضافي "حوار الحضارات": 17
الفصل الأول: ضرورات الحوار بين الحضارات: 21
الفرع الأول: حوار الحضارات ضرورة شرعية: 21
أولا: المبدئية: 22
ثانيا: القوة: 25
ثالثا: الإنصاف: 28
رابعا: الرفق: 32
الفرع الثاني: الحوار ضرورة واقعية: 35
أولا: محور الإنسان: 36
ثانيا: محور الأرض: 55
خلاصة: 64
الفصل الثاني: رهانات الحوار بين الحضارات: 67
الفرع الأول: رهان التعارف: 68
أولا: التعرف: 68
ثانيا: التعريف: 72
الفرع الثاني: رهان التعاون: 74
أولا: مفهوم التعاون: 75
ثانيا: أصالة التعاون في الإسلام: 79
الفرع الثالث: رهان التحالف: 78
أولا: إمكانية تحالف حضاري بين الأمم: 89
ثانيا: تحالف الحضارات من منظور إسلامي: 93
الفصل الثالث: آفاق الحوار بين الحضارات: 97
الفرع الأول: واقع الحوار بين الحضارات: 97
أولا: سياق دعوات الحوار بين الحضارات: 97

ثانيا: مبادرات راشدة للحوار بين الحضارات:.....101
الفرع الثاني: معيقات الحوار بين الحضارات:.....105
أولا: العقبات الداخلية (الذاتية) للحوار بين الحضارات: 105
ثانيا: العقبات الخارجية (الموضوعية): 112
خاتمة 115
لائحة المراجع والمصادر: 119

Manar al islam
islamanar.com

هذا الكتاب

يعتبر موضوع الحوار بين الحضارات أحد أهم الملتقيات التي تجمع عناصر الخير المدخر بين الأمم والشعوب، فالناس على اختلاف حضاراتهم وثقافاتهم، يعبرون عن خصال الخير بتعبيراتهم الخاصة، فيكون الموضوع غير متعلق بأمة تمتلك حضارة وقيما في مقابل أمة همجية بدائية، وإنما الموضوع هو كيف تعبر كل أمة عن قيمها الحضارية، وحيث إن حواجز اللغة، والجغرافية، والأديان، والأحكام المسبقة، تحول دون إدراك تلك التعبيرات الخاصة بكل أمة، فقد كان ضرورة أن يكون الحوار، من أجل التعارف أساسا، ثم لما يمكن أن يستتبعه ذلك التعارف من أوجه التعاون والتحالف، ولعل أهمية هذا الموضوع يكشفه حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه". وهذا يجعلنا نحن المسلمين أولى الأمم بالبحث عن القيم المشتركة، والخطوط الحضارية التي يمكن أن تصلنا بالأمم، كوننا نحمل رسالة نحتاج أي فرصة لإسماعها، وإذا كانت جهات كثيرة تحرم على المسلمين مجرد التعبير عن هويتهم، فإن حوار الحضارات يحمل فرصة التواصل مع الأمم على طبق من ذهب.